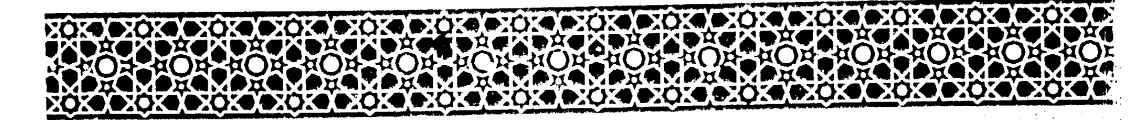
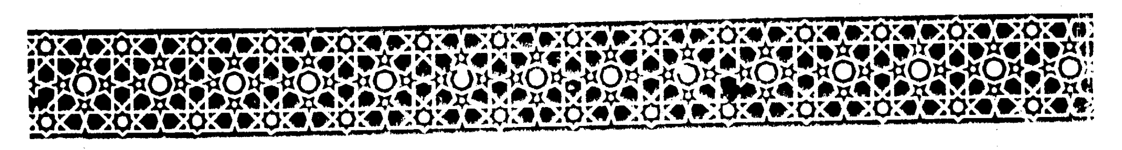
إيفـلين أندرهل



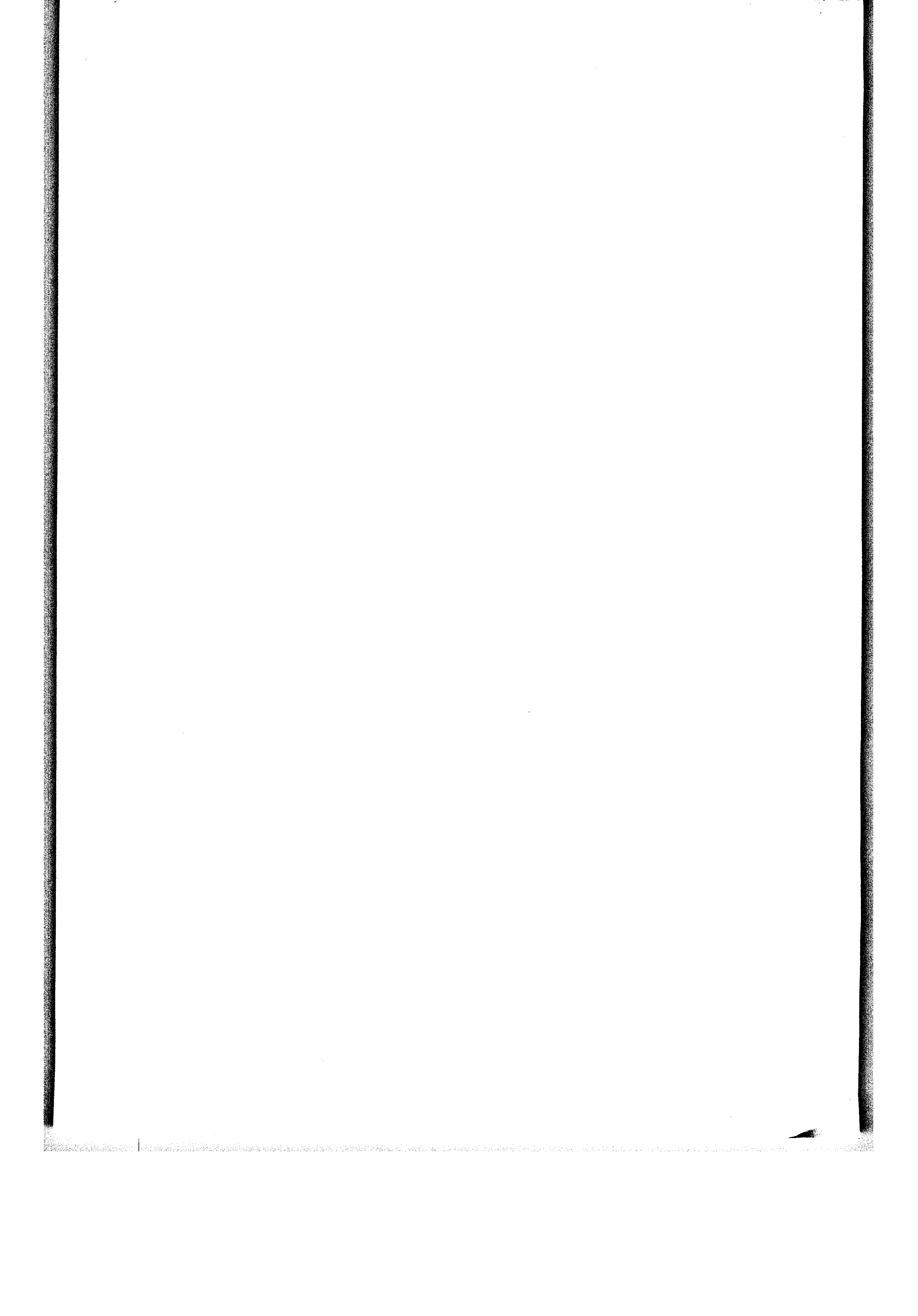


ترجمة ودراسة

دكتور إبراهيم إبراهيم ياسين



الجزء الأول



دراسة فى طبيعة وتطور الوعى الروحى لدى الإنسان

إيڤلـــين أندرهــــل

ترجمــة ودراســـة

الدكتــور

إبراهيم إبراهيم محمد ياسين

جـــزء أول

إهـــداء

إلى كل من أنزلوا الروح منزلتها السامية . إلى هؤلاء الذين حاربوا غرائزهم وأماتوا شهواتهم كي يشهدوا النور الكاشف لكل الأنوار ، وكي تنشأ في قلوبهم بصائرهم التي تنتظر لحظة سقوط الحجب كي تنفتح على الأزلية والإطلاق .

إلى هؤلاء جميعاً أهدى هذه الدراسة .

دكتور

إبراهيم ياسين

(أ) تقديم ودراسة

شغلت زمنا طويلا بالقوى الفائقة للحس . تلك القوى التى تمكن الإنسان من أن يعبر حاجز المادة ، ويتخطى حدود الزمان والمكان ، ويفتح طريقا يصل بين النظامين الطبيعى والالهى[1] . ولقد تبينت أن الصوفية العظام هم الذين يتمكنون من إيقاظ العقل الروحانى . أو الوجدان الكونى وهو العمل الذى يعدل القوانين الصارمة التى تحكم الحياة الفيزيقية والجسدية على حد إعتقاد علماء النفس من أمثال وليم جيمز . W .James ، وجومز Jomes ، وأندرهل Underhill ، وغيرهم .

ولما كان أفضل من كتب عن هذه الظواهر النفسية على حد اعتقادى هو وليم جيمز ، وايفلين أندرهل فقد خطر لى أن أقوم بترجمة أعمالهم فى هذا المجال إلى اللغة العربية حتى يتمكن الباحثون فى مجال علم نفس التصوف من الوقوف على آرائهم وبحوثهم . ولقد عكفت على ترجمة كتاب إيفلين أندرهل منذ زمن طويل إلا أن صعوبة اللغة الفنية فى هذا المصنف لا تتيح للباحث الانطلاق السريع فى الترجمة لأن الكتاب يحوى العديد من الأساليب اللغوية والرمزية فى التعبير ، كما تلجأ الباحثة فى كثير من الأحيان إلى الاستعانة بأقوال رمزية لكثير من القديسين والرهبان من أمثال إكهارث ، و رويز بروك ، والقديسة كاترين المصرية ، والقديسة كاترين الايطالية ، والقديسة تريزا ، والقديس أوغسطين وغيرهم .

وكان هذا مما يدعونى الى التأنى فى اختيار اللفظ المناسب للترجمة ، وكذلك الحرص على أن يظهر مضمون الترجمة على نحو ماجاء فى السياق الأصلى حتى

---

(١) راجع بحثنا المنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة العدد السابع لسنة ١٩٨٧ ، بعنوان التوجه : السفر إلى الله .

لايفقد العمل روحه ، وحتى لاتضيع معالم الصياغة العلمية للموضوع وهو ماقد يؤثر إلى حد ما على انطلاق اللغة وسلاستها .

ولقد إخترت من بين فصول الكتاب تلك الفصول التى تتحدث عن قوى الادراك الفائق ،وكيفية الاتصال بالحقيقة السامية ، واستقبال الرسائل التى تأتى من عالم الغيب - وكذلك بعض الظواهر المرتبطة بالإدراك المفاجىء الذى لايتعلق بالظواهر - الدينية وكذلك الادراك الخاطف المتعلق بالنواحى الدينية .

وقد لاحظت أن الباحثة Underhill[1] تميل إلى التقسيم الثلاثى لقوى النفس ، وهى نظرية تخضع فى الواقع لفكرة التثليث المسيحية ، وترى أن العاطفة والعقل والإرادة هى القوى التى بواسطتها يتمكن الصوفى من الإدراك الذى ينفذ إلى ما وراء الطبيعة ، بل إلى ماهو أسمى من ذلك ، من هنا ترجع شخصية كل فرد إلى الناحية التى تغلب عليه . ولذلك يقال أن هذا الفرد يعد عاطفيا إذا غلبت عليه العاطفة ، ونزوعيا إذا غلبت عليه الإرادة ، وعقلانيا إذا كان ممن يغلب عليهم الطابع الفكرى .

وتربط المؤلفة بين الحب والعبادة . فترى أن منتهى الحب والعشق أمر مقترن تماما بالعبادة ، فالاتصال الوثيق بين المحب والمحبوب هو نوع من العبادة .

وهى ترى أن معرفة الله عن طريق القلب (الطريق العاطفى) أكثر وضوحا ونقاءا مما لو تمت المعرفة عن طريق العقل حيث تكون الدلالة القلبية أكثر عمقا من البراهين العقلية . ثم أن القلب لديه من الوسائل والأسباب والمقومات الغامضة التى لا يدرى عنها العقل شيئا ولا تقع فى نطاقه - ان مايحاول العقل أن ينجزه فى وقت طويل وبجهد خارق يتمه القلب فى لمحة خاطفة وبلمسة من لمسات العاطفة .

وكما أن الحب يرتبط بالعبادة فإنه يرتبط أيضا بالمعرفة إذا أن اتحاد قوى النفس من حب وإرادة وعقل يمكن الإنسان من الاتصال بالحقيقة المطلقة ، فهذه اللحظة لحظة تركيز لكل قوى النفس فى حالة من حالات الانتباه المتعمد .

---

(1) E. Underhill , A study in the nature and development of man's spirtual consciousness , P . 51 .

ثم إننا نعثر فى هذه الدراسة على نوعين من قوى الإدراك السامى أحدهما هى تلك التى تتوفر للأشخاص العاديين ، والثانية هى التى لا تتوفر إلا للصوفية العظام وهى عندهم على اتصال وثيق بقوى العقل والإرادة والعاطفة .

وتعتقد " أندرهل" أن التأمل الذى يؤدى إلى المعرفة لايمكن أن يكون نوعاً من السلب أو الكسل الروحى بل هو فى حقيقته نشاط فعال وعمل شاق لكل قوى الادراك لكى نرتفع بها من المستوى الأدنى إلى المستوى السامى . أو لكى تنفذ عين الروح من القشرة السطحية إلى باطن الغيب .

إن حالة التأمل المصحوبة بالمعرفة الروحية هى تحرر من الحب الجسدى وتعلق بالحب الروحى . إن هذه الحالة من حالات الإدراك هى الحالة التى تتجاوز فيها النفس حدود الحواس ، وتنفتح على اللانهائية والاطلاق [١] .

ولأن الباطن هو المكان الملائم لوجود قوى الادراك السامية فقد رأت "أندرهل" أن هناك ملكة فى الأعماق كامنه خلف مجال الوعى أو الإدراك العادى ، هذه الملكة المجهولة هى التى تعرف الكثير عن اللاوعى ، وربما هى التى تستطيع تفسير الظواهر التى لا يستطيع الوعى العادى الالمام بها كالعبقرية ، والهستيريا ، والتنبؤ بالمستقبل ، أو الاتصال بالحقيقة الأزلية . وتطلق أندرهل على هذه الحاسة مصطلح « اللاوعى unconsciousness » ، ويذكرنا هذا بما يقوله « إبن سينا » عن الحس المشترك الذى يعد عنده مركزا للحواس الباطنة منه تتشعب وإليه تؤدى الحواس أو هو « القوة الوهمية » ، فالوهم عند ابن سينا إدراك غير مكتسب من المحسوسات الخارجية ، وإنما هو صادر من مصدر علوى على سبيل الالهام الفائض على النفوس من المبدأ المفارق [٢] . ومع ذلك فإن إيفلين أندرهل تخص القوة المدركة بنوع خاص من الإدراك هو الخاص بالنواحى الروحية والغيبية وما وراء الطبيعة . وهى العين الداخلية المتجهة إلى الرسائل القادمة من العالم الأسمى .

---

(1) A study in the nature and development of man's Spiritual consciousness; P. 52 .

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، تحقيق جورج قنواتى وسعيد زايد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ م ، جـ١ ، ص ٢٢٣ . راجع أيضا

وقد عرف الغزالى هذه الحاسة وأشار اليها فى كتابه « مشكاة الأنوار » . وهو ينظر إليها باعتبارها عينا فى القلب ليس فيها نقائص العين العادية ، وتدرك ما وراء الحجب .. وهى تدرك بالله جل شأنه . وفي الوقت الذى يظهر كل شيىء بالنور أمام البصر ، فإن ما يظهر للبصيرة يظهر بالله . وإذا كان من خواص النور العادى أن يغيب بغروب الشمس ، فإن النور الالهى لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره [١] .

ويبدو أن الغزالى كان يحاول الإهتداء إلى طبيعة هذه الحاسة الفائقة ويريد تحديدها بدقة فنراه يفرق بين الروح الحساس ، والروح الخيالى ، والروح العقلى ، والروح الفكرى ، والروح القدسى أو الروح النبوى .

والأرواح الأول والثانى والثالث والرابع تختص بإدراك المحسوسات واختزانها ، كما تدرك مابينها من علاقات منطقية . أما الروح القدسى أو النبوى ، فهو للخاصة أو هو للأنبياء والأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب [٢].

ويشير الشيخ محيى الدين بن عربى إلى معنى قريب من هذا عندما يشبه حاسة المعرفة المقدسة بالسراج الذى إذا طلعت عليه الشمس لم يتغير ضوء نفسه ـ كذلك إذا تجلى الحق للأعيان وأظهر قدسه أنار الوجود بتجليه وأنار العارف بذلك التجلى ، وزاد على الغير ـ يعنى زاد على الانسان العادى ـ بما أودعه فيه ، فيضىء بنورين ، ويشهد الحق من الجهتين ، وكما أن نور السراج أبدا الى جهة فوق كذلك نور المعرفة متعلق بالحق[٣] ، وتعمل هذه الحاسة العارفة بقوة الذوق أو كما هو عند اسبينوزا ـ حالة يمتص فيها الوعى الإنسانى ويتلاشى ـ فهى حالة من حالات البصيرة الداخلية التى تختلف عن حالات الادراك العقلى . ومدركات هذه الملكة تسمى أحيانا العلم اللدنى أو علم الأسرار [١] .

ـ محمد عثمان نجاتى (الدكتور) ، الإدراك الحسى عند إبن سينا ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ١٨٠ .

(١) راجع أبو حامد الغزالى ، مشكاة الأنوار تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٦٤م ص .ص ١٢ ، ٤٣.٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠ بالمقدمة .

(٣) محيى الدين بن عربى ، عنقاء مغرب ، طبعة مكتبة صبيح ، القاهرة ١٩٥٤م ص ٥٨.

(1) Abu Al Ella Affifi ; The Mystical Philosophy of Muhyid din - Ibnul

ويشير سيموندز J. A . Symonds إلى هذه الحاسة باعتبارها حالة من حالات الوعى العميق أو الحاد Extreme state of Mystical consciousness

أو هى حالة من حالات الوجدان الكونى ، أو الوجدان الشامل .

"Cosmic Consciousness" « كما يقول دكتور بوك Buck (٢).

وعلى الرغم من أن الباحثين فى مجال علم النفس قد لاحظوا أن أعراضا من أمثال انفصال الوعى . وإعادة ترتيب عناصره ، وتفككه هى من الأعراض المصاحبة لحالات الوجدان الصوفى وهى نفسها أعراض مرض كالهستريا إلا أنها موجودة أيضا لدى الفنانين المبدعين ، والعباقرة ، ولكنها مرتبطة عند الصوفية بتلقى العلوم اللدنية ، والمعارف الغيبية الوهبية ، وهى ليست كذلك عند المرضى المصابين بالفصام أو الهستيريا .

وترى « إيفلين أندرهل » أن الإنسان الذى خلق كى يقوم بأنشطة غريزية أقرب ماتكون إلى الأنشطة الحيوانية ، عندما يحاول أن يستخدم الخلايا العصبية فى أنشطة خارقة فإنه يصطدم بالحواجز التى تعوقه عن المسير وتضعف من عزمه ، وتلك الحواجز هى المتمثلة فى الجسد الفيزيقى الذى يفرض ضعفه وسقمه على الروح . ومع ذلك تظل الروح فى حالة مقاومة حتى تتكيف مع ماتواجهه من نشاط فائق فتقوى على الانفصال عن الظروف الخارجية وتتجه إلى ممارسة الإدراك الفائق للقوى السيكوفيزيقية .

ويبدو أن الباحثون فى مجال علم نفس التصوف متفقون على أن الحاسة الفائقة موجودة لدى البشر جميعا إلا أنها خاملة عند العامة نشطة بدرجة غير عادية عند الخاصة والمتصوفة . لذلك تعتقد « أندرهل » أن الصوفى هو الإنسان بالمعنى الحقيقى ، لأنه هو الذى يطلق جميع القوى الكامنة تحت مستوى الوعى مما لايتأتى للعاديين من البشر . ويذكر وولترسيتس W. stace أن الله يستطيع أن يجعل حضرته موضوعا لإحساس مباشر حتى من جانب أشد ضروب الوعى تواضعا ، وهذه الحقيقة تضطرنا إلى الإعتقاد بأن الحدس . أو قوى

Arabi , Cambridge; 1939

(2) W. James ; The Varieties of Religious Experience; London , 1975; P.P. 371, 385.

الإدراك الفائق - متوافر لدينا جميعا ، وأنه شكل عادى جدا من أشكال الوعى أو الشعور ، وإذا كان بعض الناس لايعترفون بوجود الحدس لديهم ، ... فإن هذا الأمر لاينهض دليلا ضد هذا الرأى ... وكثير من الناس يستخدمون مالديهم من مقدرة على الحدس الصوفى دون أن يكونوا على بينة من أمرها ... وليس من شك فى أنه لابد لنا من الإعتقاد بأنه وإن كان عيان الله لدى الصوفى العظيم هو من الوضوح بحيث أنه ليستطيع أن يكشف فى صميمه عملية تجاوز كل تمييز بين ذات وموضوع ... إلا أن هذا العيان فى معظمنا مبهم غير متحدد ومختلط بحالات ذهنية أخرى لاتمت إليه بأدنى صلة - أعنى ببعض الادراكات الحسية والأفكار المتعلقة بأشياء أخرى - غارق تحت مستوى عقولنا الواعية لدرجة أننا لنعجز تماما عن فهم طابعه الحقيقى [1] .

وعلى هذا تعتبر لحظة الإدراك الفائق لحظة الهية تقترن بفيضان النظام الالهى على النظام الطبيعى . وهو مايمكن الصوفى من أن يجلب معه إلى دائرة الزمان عيانه الذى عاينه لحظة إتصاله بالنظام اللا زمانى .

إن حضور اللحظة الالهية فى قلب النظام الطبيعى عند الصوفية العظام انما يرجع الى أن هؤلاء القوم هم القادرون على أن يحتفظوا بجميع قوى النفس فى حالة نشاط ، فالقلب والعقل والإرادة فى حالة عمل مستمر بعيدا عن الحواس .

ولما كان نشاط القوى الثلاثة لا يبدأ إلا بعد تأمل سلبى أو تركيز طويل ، فإن لمحات الإدراك الخاطف تتم منحة وهبة من الله ، بل وتظل النشوه والبهجة السامية من الأمور التى تشد انتباه المتصوف كما لو كانت سرا من أسرار حياته أوسببا من أسبابها .

وترى « ايفلين أندرهل » أن الهدف الأسمى من مغامرات قوى النفس العارفة هو الإتحاد بالحقيقة السامية ، فانه لكى نعرف المقدس حق معرفته فلابد من الاتحاد به . وهو نفس مايعتقده صوفية المسلمين من أصحاب مدرسة « الوحدة الوجودية » بصفة خاصة وصوفية الفناء بصفة عامة ، وهو ما عبر عنه

---

(١) وولتر سيتس ، الزمان والأزل ، ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ص ١٥٦، ١٥٧ .

« فريد الدين العطار » فى موقف الفناء باحتراق الفراشة فى ضوء الشمعة كى تحظى بالمعرفة . يقول « إجتمع جمع من الفراش ذات ليلة ، وكانوا فى مضيق يسعون فى أثر شمعه ، وقال الجميع يجب على واحدة منا أن تأتى بخبر ولو بسيط عن مطلوبنا ، فطارت فراشة حتى وصلت إلى قصر بعيد ، فرأت فى ردهات القصر نورا « نابعا من شمع ، فرجعت وفتحت دفترها ، وبدأت فى وصفه على قدر فهمها ، فقال لها ناقد ذو مكانة بين الجميع إنك لم تحظ بمعرفة الشمع .. وطارت فراشة أخرى إلى حيث النور ، وطافت حول الشمع ، وهكذا حلقت حول أشعة المطلوب ، حتى أصبح الشمع هو الغالب وهو المغلوب ، ثم عادت وقصت عليهم بعض الأسرار ، وأعادت عليهم شرح ماتم لها من وصال ، فقال لها الناقد إن هذا ليس دليلا مقنعا ..نهضت ثالثة وأسرعت ثملة نشوانه ، وعلى وهج النار استقرت ولهانة فاحترقت كلها فى النار ، وأفنت نفسها بالكلية ، وهى غاية فى السرور ، وما أن احتوتها النار حتى احمرت أعضاؤها وتلونت بلون النار ، فما أن رآها ناقد من بعيد ... حتى قال لقد أصابت هذه وكفى [1]».

ويفصح النشاط التأملى أو (التأمل) عن نفسه فى حالات عديده . كالتأمل الايجابى والتأمل السلبى ، وفى بعض الحالات السيكوفيزيقية التى يحدث فيها إنحسار لمجال الشعور العادى وتجاهل وسائل الحواس

ويظهر التأمل المناسب كنوع من الفيض السامى لقوة غير مرئية من قوى العرفان التى لا تخضع لقوى الفكر ، وإنما هى نتاج للحب للصوفى الذى يدفع النفس للتركيز فى اتجاه واحد لايتعداه . هذا الاتجاه هو اتجاه الواحد الذى يلغى الكثرة والتعدد المشاهدين فى العالم الطبيعى ، وتبدو لحظة التأمل انفتاح خاطف واتصال سريع بارق ، بالنور الواحد القاهر ، وهذا الاتصال الذى لايدوم طويلا يسمح للصوفى أن يعود إلى حالته العاديه حاملا معه آثار رؤياه وعبير مشاهداته التى تلقاها فى لحظة من لحظات الكمال أو الحب النقى .

---

(١) فريد الدين العطار ، منطق الطير ، ترجمة د . بديع محمد جمعه ، د . عبد المنعم محمد حسنين ، طبع القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٢٩٠ .

ومن خواص لحظة الادراك السامى أو التأمل كونها غير قابلة للوصف[1] ، إذ تعجز اللغة عن الوفاء بإحتياجات التعبير عن عالم غير مرئى وليس فى نطاق الحواس . كذلك هناك فرق بين التأمل والتعقل إذا يخضع التأمل لما يعرف بتلاشى القوى الحسية والمعبر عنه عند بعضهم « بالهدوء المطلق » أو « الظلام »

ويبدو أن عدم قابلية هذه اللحظة للوصف أمر قد اتفق عليه كل الصوفية - وقد ظهر هذا فى كتابات « ديونسيوس » « رويزبروك» « وأفلوطين » وغيرهم.

وترجع عدم القابلية للوصف إلى غموض المشاهدات والمعارف التى يتلقاها الصوفى حال التأمل وامتزاجها بكثير من المشاعر العاطفية الفياضة - لذلك تكون العبارات التى يستخدمها المتصوف لوصف هذه الحالات هى مما يصف إحساسه وعواطفه الشخصية - فهو إذن يتحدث عن الطريقة التى يشعر بها بالخبرة الدينية لا الخبرة ذاتها .

وقد يرى بعض المتصوفة أن أفضل وصف لهذه الخبرة الفائقة هو « الإتحاد التام » أو « فقدان الذات فى غيب المطلق » على نحو مايعتقد ريتشارد رول Richard Rolle[2] .

وإذا كانت الباحثة ترى صعوبة الوصف البشرى لهذه التجربة إلا أنها تعدد طريقين للوصف : إحداهما باستخدام ألفاظ غامضة كالهاوية السحيقة ، أو الصحراء القاحلة ،أو الوجود المطلق الخالص ، أو الظلام المقدس . وهى ألفاظ تبين إلى أى مدى يكون الانسان ضئيلا فى مواجهة هذه التجربة ، كما بين الخوف الشديد والعاطفة الرهيبة التى تنتاب المتصوف وتملأ قلبه بالنور وتعطيه إحساسا عميقا بالاغتراب .

وإما الطريق الثانى لوصف هذه الخبرة فهو الذى يحكمه نوع من الحب المسيطر على إحساس المتأمل ، وهو الحب الذى يملأ قلبه بالقرب ، والألفة والعذوبه ، وهى مشاعر تبدو عكس المشاعر التى وصفناها فى الطريقة السابقة .

---

(1) W . James the varieties of Religious Experience; P.P. 371 , 375.

(2) See The varieties of Religious Experience; P. 372 .

والمتأملون يلجأون هنا الى إستخدام اللغة الشعرية الجميلة فى وصف مشاعرهم.

وهم فى هذا قد يلجأون إلى استخدام التشبيهات الحسية التى تفصح عن نوع البهجة التى يشعرون بها نتيجة للحظة مشاركة المقدس حياته ـ على حد تعبيرهم ـ وبذلك تكون الحقيقة عندهم متمثلة فى التشخص وليست مجرد حالة .

ولا تستقيم حالة التأمل إلا بالوصول إلى مرحلة الحب الأبدى اللانهائى الذى يهبط بالا له إلى داخل القلب الصغير ـ وكأنما يرى هؤلاء المتصوفة من أمثال « أنجيلا فولنجو » ، و « متشيلد » ، و« إكهارت » وغيرهم أن القلب منصه تجلى الله أو هو المكان الوحيد الذى يفهم الله ويعرفه ويلتقي به ،

ويذكرنا هذا بالتصور الاسلامى للقلب ذلك التصور الذى يعد القلب وسعا يختص باستقبال الله . أو هو ذلك الجوهر النورانى أو الكوكب الدرىّ ، الذى وصف الله نوره بأنه أشبه بالمشكاه التى فيها مصباح متلألأ يستمد نوره من السماء .[1]

مع ذلك يظل التصور المسيحى بعيداً عن التصور الاسلامى إذ المنطلق فى الفكر المسيحى هو فكرة التشخص أو الحلول ـ بمعنى أن هناك شخصية قابلة للمعرفة للرب ، « وكل » غير قابل للمعرفة وإن كان كلا الجانبين يمثلان شيئا واحدا فى نظر المدرسة الألمانية[2] الا أن هذا الواحد مركب من أجزاء وهو مالا توافق عليه العقيدة الإسلامية التى ترى أن النور الالهى غير مخلوق ولا يحيط به علم الخلق وهو الهادى للخلق ، وأما أنوار المصنوعات المستمدة من الأنوار الالهية فهى التى يستدل بها على معرفة التوحيد[3] .

---

(١) راجع القاشانى . إصطلاحات الصوفية تحقيق د. محمد كمال جعفر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١ م ، مادة قلب .

(2) A Study in the nature and development of man's Spiritual Consciousness ; p. 344.

(٣) أبو نصر السراج ، اللمع ، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى ، مصر ١٩٦٠م ، ص ٥٤٩ .

ويصف المتصوفة المسيحيون حالات نشوتهم وجذبهم بأوصاف من أمثال « الموت » و « التلاشي » والفناء وهي أوصاف نجد لها نظير عند متصوفه المسلمين من أصحاب الاتجاه المتفلسف من أمثال محيى الدين بن عربى الذى يعرف الموت بأنه قمع هوى النفس ، فإن حياتها به لأن الهوى هو الذى يجذبها إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية وهذا سبب موته عن الحياة الحقيقية ، .. فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعه انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه . عالم القدس والنور والحياة الذاتية التى لا تقبل الموت أصلا ، والى هذا الموت أشار أفلاطون بقوله مت بالارادة تحيى بالطبيعة .[1] فالموت هنا هو الحياة أى أن موت الغرائز والشهوات والميول الطبيعية هو حياة القلوب الحقيقية .

والموت المشار اليه هو وسيلة المعرفة إذلا معرفه إلا بالإعتراف بعجز العقل وقصوره عن المعرفة . فالاعتراف بجهل العقل هو الخطوة الأولى تجاه معرفة المطلق . وخصوصا إذا ما اقترن هذا الاعتراف بالجهل بنوع من الحب الشديد الذى يطلق أشعته النورانية على ظلام الجهل فيبدده .

ويؤكد القديس يوحنا الصليبى على أن عملية التأمل التي تسمو بالروح إنما هى عملية روحية ليس فيها للعقل أى دور بل هى كلها مكرثه للروح ، إذا يكون العالم المقدس معدوما بالنسبة للعقل وموجوداً بالنسبة للروح ، إن ليل الفكر أو ظلامه هو النتيجة المنطقية لنور الادراك الروحى .

لذلك فإن ماتحصل عليه الروح من مشاهدات يظل أمرا غامضا وسريا مهما حاولت أن تفصح عنه ، ومهما استخدمت من وسائل للتعبير عن نفسها فإن السر يظل سراً وتبقى الحكمة الداخلية بسيطه بساطه مطلقه لدرجة أنها لاتقع فى نطاق الفهم أو الحس . وقد نستفيد هنا من عبارات العميد إنج على نحو مايوردها وولترستس الذى يقرر أن الفكرة التي تصور الله للإنسان باعتباره خلاء محضا ، وهاوية عدم إنما تحمل فى ثناياها إيحاء بشيء يمتد فيما وراء كل تجربة ، . شيء واسع غامض ، شيىء هائل مغلف بالظلال شيء يند بعظمته عن كل إدراك

---

(١) راجع إصطلاحات الصوفية للقاشانى ، مادة الموت

بشرى ، شيء يكمن خارج مجال الفهم المتناهى . لدرجة أنه لابد من أن تستحيل فى نظر هذا الفهم الى مجرد خواء أو عماء ، ونحن نشعر شعورا مبهما - وإن كنا لا نفهم ذلك فهما تاما - بأنه وإن كان فى استطاعتنا من خلال اللغة الرمزية والشعر . والصور التشبيهية والوجدان الصوفى أن نلمح قبسا أو ومضه من ومضات الله ، أو أن نتعرف عليه فى أنفسنا وفى العالم إلا أننا لو حاولنا أن نفهمه على نحو ماهو فى ذاته بالفعل لتولد أمام العقل الذى يحاول النفاذ إلى السر الأقصى على هذا النحو خواء وخلاء ونقاب من الظلمة يحجب أمامه الموجود الاسمى [1] وهذا يشير بوضوح إلى فكرة الالوهية السلبية التى يعتقد العميد « إنج » أنها قد انتقلت إلى الفكر المسيحى عن طريق الأثر الهندى - وهى فكرة يرفضها التصور المسيحى وحدها إذ أن فكرة الاله المشخص أو الألوهية الإيجابية هى الجانب الأخر الذى لابد منه للقضاء على التواكل والتشاؤم والاستسلام والزهد ، واعتزال العالم ، واحتقار القيم الايجابية للحياة فى العالم وهو ماينتج عن التصور السلبى الذى يميل الى ترديد عبارات شاعت عند « تاولر » و « مرجريت سميث » وغيرهم عندما يتحدثون عن الله فيقولون أنه « الضباب المظلم » أو « الظلام الالهى » أو « الظلام المقدس » أو الليلة المظلمة كما هو الحال عند « يوحنا الصليبى »

ومما لاشك فيه أن فكرة الالوهية السلبية والغموض المقدس ، والظلام الأسمى هى من نتاج المتصوفة من اتباع النمط « الديونسيوسى »[2] نسبة إلى « ديونسيوس » الأريوباغى ويرى البعض أن محيى الدين بن عربى هو أحد هؤلاء المتصوفه المسلمين الذين تبعوا نفس الاتجاه إذ يصف الله بأنه مالايمكن أن تعرفه بالعقل فيقول « إنك تعرفه بهذه الطريقة لا بالتعلم ، ولا بالعقل ، ولا بالفهم ، ولا بالوهم . ولا بالحس ، ولا بالعين الخارجية ، ولا بالعين الداخلية ، ولا بالادراك الحسى .. إن نقابة ألا وهو الوجود الظاهرى ، إنما هو مجرد حجاب

(١) وولتر ستيس ، الزمان والأزل طبعة بيروت ١٩٦٧ م ص ٨٨ .

(٢) الزمان والأزل ، ص ٨١ راجع أيضا

Astudy in the nature and devlopment of man's Spiritual Consciousness , P 352 .

لوجوده في واحديته دون أدنى صفه [١].

ويبدو لنا أن فكرة الألوهية السلبية قد استمدت اصولها من الأوبنشاد كما يذكر بعض الكتاب من أمثال العميد « إنج » الذى يؤكد أن الألوهية السلبية لايمكن أن تشكل وحدها حقيقة الألوهية »[٢] .

ويعبر بوذا عن هذه الفكرة عندما يستخدم كلمات من أمثال « اللامولود ، اللامنتشىء ، اللا متشكل » الذى يتجلى فى كل شيء إلا أنه لاينحصر فى شيء واحد بعينه ، ولايمكن أن يكون ملكية خاصة لأى شيىء مهما كان .

إنه يخاطب ولده Ruhla قائلا سواء كان الشكل ماضيا أو مستقبلا ، داخليا أو خارجيا ، منخفضا أو عاليا ، ساميا أو دانيا ، فيجب النظر إليه على أنه ليس خاصاً بى ، ولست أنا هنا فى نفسى . ثم أنه يشير إلى أن حقيقة اللامولود الذى يتجلى فى كل شيء ، تتضح فيما لا شيىء على الاطلاق سواء كان صفه أو خاصية أو مبدأ .

ولقد نجحت الأوبنشاد فيما يبدو فى التوحيد بين فكرة « اللانفس » عند البوذيين ، « والنفس الكلية » عند الهندوس ، وكلاهما أصبحا حقيقة واحدة . ويبدو هذا واضحا فى هذه العبارة .

« كل الأشكال خواء ومع ذلك فالخواء ملاء »[٣] وهذه إشارة واضحة إلى أن الأولوهية الإيجابية تقف جنبا إى جنب مع الألوهية السلبية منذ ظهر هذا الاتجاه عند الأوبنشاد وربما هذا هو نفس ماذهب إليه العميد إنج الذى يؤكد أن الديانة الهندية لم تكن سلبية محضه فى تصورها لله ، لذلك ظل تأثيرها على المسيحية قائما .

إن التصور السلبى المطلق للألوهية قد يفضى إلى نتائج خطيرة إذ يمكن

---

(١) ابن عربى ، الفتوحات المكية ، السفر الثالث ، ص ٦٧ الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤م ، راجع أيضا ، الزمان والأزل ، ص ٨١ ، ٨٢ يراجع أيضا
Margaret Smith " Readings From Mystics of Islam" P . 118.

(٢) راجع الزمان والأزل ، ص.ص ٩٠ ، ٩١

(3) Christams Humphreys; Exploring Budhism; London ; 1974 . P.P. 42 - 45 .

القول أن قولنا أن « الله عدم » مساو تماما لقولنا « أنه ليس ثمة إله » إلا أن التصور السلبى له معنى أخر عند الصوفية إذ عندما يتصورون الله بإعتباره خلاء محضا وهاويه عدم إنما يشيرون إلى أن هذه الفكرة تحمل فى ثناياها إيحاء بشيء يمتد فيما وراء كل تجربه ، شيء يند بعظمته عن كل ادراك بشرى ، شيء يكمن خارج مجال الفهم المتناهى وهذا لايعنى بأى شكل من الأشكال الاعتقاد بأنه ليس ثمة إله ، بل هى تشير إلى وجود غامض ومبهم وعسير على الفهم للإله .

إلا أننا يجب أن ندرك أن معرفة الله هنا تتم عن طريق الحب ، أو باستسلام قلب المتناهى لقلب اللامتناهى [1] بحيث يغمر اللامتناهى المتناهى .

ويبدو لنا أن حالات الاتصال بين الطرفين منظور إليها فى التصوف المسيحى باعتبار أن الله هو الذى يسعى للاتصال بالإنسان أو أنه يحل فيه . بينما يبدو الأمر فى التصوف الاسلامى محاولة من جانب الإنسان كى يتصل بالله وكى يبدو إلهى أو ربانىّ ، يقول للشيء كن فيكون - بمعنى أن الاتصال الالهى بالإنسان هنا يكون تمددا لنشاط الفعل الالهى وفيضا لنوره فتبدو حركات الإنسان وسكناته أفعلا لله - وهو مادعا البعض إلى الإعتقاد بأنه ليس ثمة حرية بالنسبة للإنسان[2]. وربما نجد بعض هذا الاتجاه عند القديسة تريزا التى تعبر عن هذه االفكرة بقولها أن الرب يزور الروح ويسلبها كل احساس بالعالم إلا أنها عندما تعود إلى نفسها تدرك أنها كانت فى الرب وأن الرب كان فيها .

إلا أننا لا نوافق على بعض النتائج التى توصلت إليها « أندرهل »[3] وظهرت فى كتابات « وليم جيمز » ومن أهم هذه النتائج ماذهب إليه جيمز من أن الحالات الصوفية يمكن استثارتها عن طريق تعاطى المخدرات أو استنشاق الكلورو فورم أو أكسيد النترات وهى من المخدرات التى تؤدى إلى نوع من الغيبة عن الوعىّ ، بل وتستثير حالات الهذيان والخيالات المتوهمه .

---

(1) Astudy in the nature nature and development of man's Spiritual Consciousness, P. 356 .

(2) H. D. Lewis; Philosophy of Religion , London P .P . 2o2 , 203 .

(3) Astudy in the nature and development of man's s.c.; P. 357 .

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما حاول استثارة « حالات صوفية » كالفناء ، والبصيرة ، بطريقة تجريبية عن طريق إعطاء مجموعة من الأشخاص مخدر « الكلوروفورم » ثم أخذ يسجل هلوساتهم باعتبارها مشاهدات صوفية ، وهو يقدم لنا فى هذا المجال تجربة « سيموندز »[1] الذى يسجل الحالة الصوفية التى دخل إليها باستنشاق « الكلوروفورم » فيقول أنه أصيب بغصه ومغص فى البداية وبدأ يشعر أنه ينطق كلمات جوفاء ، ثم أشرق عليه بعد ذلك إشعاع الكلمات ذات المعانى ، ثم أصبح يستشعر الأشياء ويلمسها ، وكاد يصيبه الموت عندما أصبحت روحه مدركه وواعية بالذات الالهية التى غمرته بالنور الالهى الذى لم يتمكن من وصفه وعندما أفاق من هذه الحالة شعر بأنه كان يجتاز حالة مرعبه مفزعة لايمكن وصفها .

وتصنيف هذه الحالات على أنها « غيبة روحية » عن النفس والعالم أو « فناء فى الذات » هو من الأمور التى تخالف تماما روح التصوف الخالص وخصوصا التصوف الاسلامى الذى لايعرف إستنشاق المخدرات أو تعاطيها .

كما لم يثبت لدينا أن الصوفية المسلمين المتمسكون بكتاب الله وسنه رسوله قد أشاروا من بعيد أو قريب إلى تعاطى أى نوع من المخدرات ليكون وسيطا يصل بين العبد وربه . بلا إن المعروف عنهم عكس ذلك ، فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويذكرون الله ذكراً دائما ، ويتخلون عن الأخلاق المذمومة ، ويتحلون بالأخلاق المحمودة [2] ، ويسقطون التعلقات البشرية ، والغرائز الدنيوية ، ويميتون الشهوات ويتمسكون بكل مأمن شأنه أن يطهر البدن والقلب ، حتى يصلون إلى معرفه الله جل شأنه حق معرفته ، وحتى تكون هناك صلة أو إتصال لحظى بين العبد وربه .

لذلك يكون كل ماأورده « وليم جيمز[3] من آراء حول أقوال « الحلاج » أو

---

(1) The varieties of Religious Experience., P.P. 371 , 380 .

(٢) أبو القاسم القشيرى ، الرسالة القشيرية القاهرة ١٣٣٠ ه ، ص ٣٧

(3) The varieties of Religious Experience; P . 387 P. 390 , J.A. symonds.
يهذى سيموندز قائلا أنه بعد تناول المخدر أنه كان يشعر أنه فى رحله حول ذاته .... وأن هذه الرحلة إنتهت قبل أن تبدأ ، وأن المسافر فى هذه الرحلة يشعر وكأنه يقبل شفتاه ... إلى آخر الهلوسات التى

« جلال الدين الرومى » باعتبارها من حالات النشوة التى تصاحب الغيبة أو الفناء أو تعاطى المخدرات هو أمر غير صحيح إذ بالرغم من غرابة أقوال الحلاج ، وبالرغم من شطحات جلال الدين الرومى إلا أنه ليس هناك علاقة بين الحالات الصوفية النفسية التى مروابها وتعاطى المخدرات . ويبقى مافعله جيمز فى هذا المجال أمراً تجريبيا فى مجال تعاطى المخدرات وماينتج عنها من هلوسات وليس له صلة بالتصوف بصفة عامة والتصوف الإسلامى بصفة خاصة .

وتبقى حالات الغيبة المؤقتة ، أو الفناء عن الدنيا من الأمور الدينية الوجدانية المصاحبة لحالات من الحب الجارف لله جل شأنه ، وتكوون كل الظواهر الناتجة عنها ظواهر وجدانية طبيعية ، وليس لها علاقة بالأمراض النفسية كالهستيريا والفصام

يقول الكملاباذى وليس الفانى بالصعق ولا المعتوه ولا الزائل عن صفاته البشرية فيصير ملكا أوروحانيا لكنه فنى عن شهود حظوظه »[١] .

كما أن الصوفى حال الإدراك الفائق والعجز عن التعبير لا يمكن أن يكون مصابا بالفصام ، لأن الفصام كما يقول « ماير جروس » يعنى شذوذ عملية التفكير ذاتها لاشذوذ الأفكار المعبر عنها »[٢] .

وهذا يعنى أن غرابة اللغة وعدم ترابط الأفكار وغموضها عند الصوفى إنما يرجع إلى غموض التجربة التى يدخل إليها وهو مادفع بعض الصوفية المسيحين إلى وصفها « بالليلة السوداء » أو « الظلام المقدس » أو « سحابة عدم المعرفة » إشارة إلى مدى عمق الخبرة وغموضها ، فالأفكار المعبر عنها فى هذه الخبرة يمكن أن تكون شاذة بالنسبة للإنسان العادى وهى عادية عند الصوفى - كذلك فإن الصوفية لم يكونوا أبدا من أصحاب الأمراض العقلية أو النفسية .

والآن نعرض لأهم موضوعات هذه الدراسة ونبين أهم الواسائل التى تدفع

يعدونها من قبيل الحالات الصوفية ، وهما ، وخروجا على المنطق والعلم والدين .

(١) الكلاباذى ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق د. عبد الحليم محمود القاهرة ١٩٦٠ ص ١٣١ .

(٢) أحمد فائق (الدكتور) ، جنون الفصام ، دار المعارف ١٩٦١م ص ٢٧.

القوى العميقة فى الأنسان كى تظهر وتتآلف وتعمل معا للوصول إلى أعلى مستويات الادراك السامى ـ وسوف نتعرف على هذه القوى ونعرض للوسائل التى تؤدى إلى هذا النوع من الإدراك الفائق ـ هذا ولقد استخدمت الهوامش لبيان معانى المصطلح المستخدم كلما أمكن مع مقارنته بما جاء عند صوفية المسلمين .

د . ابراهيم ياسين

مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الأداب جامعة المنصورة

المنصورة فى ١٩٨٨/٨/٢٨

الفصل الأول

التصوف وعلم النفس

(التصوف وعلم النفس)

(أ) قوى الإدراك الفائق :

إن من حقائق علم النفس الصوفى أن الجهاز العقلى يخضع لسيطرة النفس . وهو المعنى بايجاد الطريقة التى بها يمكن للنفس أن تهرب من سجن العالم المحسوس أو المادى ، وأن تنفذ من خلال قيوده لتحصل على المعرفة وتحظى بالاتصال الواعى مع الحقيقة السامية : supra sensible reality

وتظل النفس تحاول النفاذ عبر جدران هذا السجن وهى تحاول أن تخترق أضعف نقطة فى جدران الزنزانة التى تنغلق عليها ، تصارعها قوتان هما . الرغبة فى معرفة أوسع ، والرغبة فى حب أعمق ، وعندما تسيطر أولى هذه الرغبات تسمى النتيجة التى نحصل عليها نتيجة فلسفية أوعملية ، وعندما تقهرها قوى الحب الغير مرضى يصبح رد فعل النفس على الأشياء شاعريا ، أو فنيا ولا يتصف دائما بالتدين .

لقد رأينا أن هناك عدد معين من الأشخاص الذين أعلنو أنهم تمكنوا من الهرب من هذا السجن فان كان هذا صحيحا فإنه يكون من أجل إشباع هاتين الرغبتين ، رغبتا الحب والمعرفة ، ولولهما لكان هذا السجن الذى تحبس فيه النفس مأوى مريح لها .

ولأن مثل هذه الرغبات تتوفر لدينا بدرجات متفاوتة من حيث النشاط والسلبية فانه مما يجدر بنا اكتشافه إن استطعنا . أن نعثر على أضعف نقطة فى جدران السجن ، والطريقة التى بها يكون من الممكن للانسان أن يهرب منه .

وقبل أن نحاول بلغة علم النفس التعرف على الطريقة التى بها يهرب المتصوف من قيود الحواس وينطلق متحررا منها فانه من المهم لنا أن نتعرف

على الآلة التى تكون تحت سيطرة النفس الواعية ـ انها المخلوق أو جزء من المخلوق الذى نعرفه بذواتنا .

وقد ذكر علماء النفس القدامى أن الرسالة القادمة من العالم الخارجى توقظ فى هذه النفس ثلاث أنواع من الأنشطة .

١ - فهى تثير حركات الجذب والتنافر الخاصة بالرغبة وعدم الرغبة والتى تتدرج فى شدتها ابتداء من رغبات الطفل الجائع النصف واعية إلى عواطف المحب وتعصب الفنان .

٢ ـ أنها تشير نوعا غريبا من العمليات الهضمية الخاصة والتى تمزج فيها بين التصورات والمفاهيم وتجعلها جزاء من نفسها أو من عالمها .

٣ ـ ان تحركات الرغبة conation وفعل العقل أو كلاهما معا متحدين فى تركيبات متنوعة توقظ فى النفس تصميما على الفهم والتصور لكيفية العمل سواء كان ذلك عملا جسديا أو عقليا أو روحيا . ومن ثم فان النواحى الأساسية للنفس تصنف باعتبارها عاطفة ـ عقل ـ إرادة .

ويترتب على هذا أن يكون مزاج الفرد منظورا اليه باعتباره عاطفيا أو عقليا أو إراديا طبقا لحالته من الشعور ، سواء كان ذلك إحساسا أو عقلا أو إرادة يفترض أنها مسيطرة .

فالشخص الذى يعمل العاطفة يكون عاطفيا ، والذى يعمل العقل يكون عقلانيا والذى يعمل الارادة يكون نزوعيا . وأما علماء النفس المحدثين فيميلون إلى التركيز على وحدة النفس الباطنية الخفية وما يبدو منها من مظاهر الرغبة ، وأشاروا إلى أن مايبدو من نشاط النفس خاضع فى الواقع لما يكمن فى باطنها .

ان النفس التى لاتحظى باشباع عاطفى تتوزع بين نوعين من الرغبات :

(١) الرغبة فى مزيد من الحب .

(٢) الرغبة فى مزيد من المعرفة .

ولقد ابتعد علماء النفس المحدثين عن هذا التقسيم للذات ومالوا إلى التركيز على وحدة النفس التى لم يرها أحد مطلقا والتى تعرف من حيث الناحية الدافعية باسم الليبدو أو النشاط الهرمونى .

والآن فإن النفس الغير قانعة فيما يتعلق برغباتها العاطفية تريد كما قلنا مزيدا من الحب بينما يريد العقل الواعى مزيدا من المعرفة .

إن المخلوق البشرى الواعى يشك فى إمكانية أن تقنع الرغبتان بغذاء قليل ذلك أنه يوجد الكثير لتحبه كما يوجد الكثير لتعرفه فى مكان ما من ذلك العالم الغامض ، وبعيدا عن قوى العطفة والفهم فهى تستحق أن تحظى بموضوعات أنبل مما تحظى به عن طريق وهم الاحساس .

إن الوعى يحاول أن يعبر إلى المطلق مدفوعا برغبات كل من الإحساس والفكر ولكنه يرغم على العودة ثانية . إن النظام الفلسفى والقوى العملية والفنية والجمالية قد تحاول بدورها ، وقد يحاول الفن والحياة والمصادفات التى تصادف البشر تقوية النظرة العاطفية إلا أن العقل يستيقظ ليرفض تلك النظرة ويثبت عدم صدقها .

وقد يبدوا أن العلم وما وراء الطبيعة يقدمان للعقل نافذة مفتوحة على الحقيقة إلى أن يستيقظ القلب ويعلن أن هذا المنظر خواء أو صحراء مجدبة لاثراء فيها .

إن هذه النواحى النفسية لابد وأن تكون متعدية إلى ماوراء طبيعة النفس ذلك أن الحقيقة التى تبحث عنها لابد أن تقابل كلا الادعائين (العاطفة . والعقل)

فكأن قوى القلب والعقل فى صراع دائم وكأن الفكر والمعرفة فى تناقض مستمر مع الحب والعاطفة .

ولم يكن حديث ديونسيوس عن ملائكة الحب seraphs وملائكة الفكر والعقل cherbus [1] إلا إبرازا لهذا الصراع المستمر بين قوى العقل والعاطفة فملائكة السيرافيم الذين يتمتعون بالحب الكمل ، وملائكة « الشارويم » الذين يتمتعون

---

(١) طبقا لتصوير ديونسيوس لملائكة العقل فهى ملائكة كلها عيون ، وأما ملائكة الحب فكلها أجنحة . وبينما تكون ملائكة الحب هى شكل من أشكال الحب الذى يتحرك ناحية المقدس ومن خواصها الحماسة والنشاط ، فان من خواص ملائكة العقل التصورية ، وقدرتها على إمتصاص أشعة النور المقدس .
A study in the nature and development of M.S.C.P. 46.

بالمعرفة الكاملة هم النموذج لهذا الصراع . وقد يتضح لنا مماسبق أن الحب جزء لايتجزأ من المعرفة ، والمعرفة جزء لايتجزأ من الحب .

كما أنه يمكن القول أن هناك معنى من المعانى التى ترى الرغبة فى المعرفة باعتبارها جزء من الرغبة فى الحب الكامل طالما أن هناك جانبا من العاطفة هو الاشتياق للمعرفة طبقا لأعمق وأكمل وأدق المعانى .

كذلك يمكن النظر إلى الحب على أنه نشاط عاطفى متأجج وهو شوق دائم وحركة دينامية نشطة وهو اتجاه نحو الهدف المنشود ، ولا يمكن لأحد أن يعرف معنى هذا الحب إلا إذا خاض نفس التجربة وحلق في نفس الأجواء.

إن الفرق بين الحب الإيجابى النشط ، والمعرفة السلبية كالفرق بين الإرادة التى تشجعها العاطفة والفكر العقلى . إن معظم منجزات الانسان هى نتيجة لهذا الحب الفعال .

ولعل من أهم النتائج فى علم النفس المعاصر إبراز أهمية « الشعور » أو « العاطفة » فى حياة المتصوف خصوصا وأن هذا الشعور يتفوق على العقل فيما يتعلق بالأتصال بالعالم المتسامى المتعدى للطبيعة .

ففى مجال الدين يمكننا القول أن الله يعرف عن طريق القلب . وهذا يعطى أداء فعاله وشخصية أفضل لخبرتنا الروحية مما لوكانت عن طريق العقل .

إن لدى القلب من الوسائط مالا يتأتى للعقل أن يحصل عليه ، إن تجربة العاطفة العميقة تقودنا إلى أبواب مفتوحة على مصارعها تكشف عن حقائق الأشياء وهو مالا يتأتى فى أفضل لحظات التفكير لعقل ذكى .

إن العاطفة أمر مشترك بين الصوفى ، والفنان ، والشاعر ، لذلك يمكن القول أنهم جميعا يشتركون فى لحظة واحدة وهى تلك اللحظة التى ينكشف فيها الحجاب الذى يقف العقل عاجزا حياله . إن القلب يمكن أن يحلق فى أجواء المجهول ويعود حاملا معه غذاءً طازجا يغذى به الفكر . لذلك يمكن القول أن الذين يشعرون ليفكروا سيكون لديهم تجربة أكثر ثراءا من الذين يفكرون ليشعروا . ولعل هذا ماعناه مؤلف كتاب « سحابة المجهول » ، عندما قال إننا

نصل إلى معرفة الله عن طريق الحب وليس عن طريق التفكير أو الفهم .

إن العاطفة فى عملها المناسب هى حركة الرغبة التى تقوم بعملية تركيز تجمع فيها كل قوى النفس فى حالة من حالات الانتباه المتعمد ـ وهو عمل الإرادة ـ هذا الدفع والجذب كما يقول رويزبروك roysbroeck هو مانستشعره فى القلب وفى وحدة جميع القوى الجسمانية وبصفة خاصة القوى التى لديها رغبة . .

هذا العمل العاطفى من التركيز الدقيق للذات على نقطة واحدة عندما يطبق عن عمد على الحقيقة والأشياء السامية أو المتعدية للطبيعة يشكل اللغة الفنية للتصوف أو ما يسمى حالة الذكر وهى الحالة التى تحدد خواص الشعور أو الوعى الصوفى وتكون مقدمة لحالة التأمل التى يدخل فيها الصوفى ويصل من خلالها إلى الاتحاد مع الحقيقة .

ولقد وصلنا حتى الآن إلى وصف ميكانيكية المتصوف الذى يمتلك مثل غيره من الناس ـ قوى الاحساس ، والفكر ، والارادة ـ ومن الجوهرى أن حبه وعزيمته وحتى ماهو أكثر من فكره يجب أن ينصب على الحقيقة السامية .

إن الصوفى يجب أن يستشعر نوعا من الجذب العاطفى القوى تجاه الموضوعات الفائقة للحس . ذلك أن هذا النوع من الحب هو الذى تعرفه الفلسفة بأنه قوة أو قدرة تكون سببا فى أن كل مخلوق يتبع اتجاها من نفس طبيعته ـ ومع هذا الاتجاه تتولد الرغبة فى تحقيق اتصال بالموضوع المطلق « الله » . هذا الشوق الجامح يعبر عن نفسه بنوع من التركيز الشعورى أو الواعى للذات على الهدف وهو التركيز الذى يسبق عملية التأمل المركز أو يصاحبها ـ ولذلك فالحالة الصوفية ليست سلبا خالصا ـ وبيتعد هؤلاء الذين يصفونها بالسلبية عن الحقيقة ، فلسوف نرى أن التأمل هو حالة من التركيز الإرادى .

(٣) التأمل contemplation كوسيلة للإدراك الفائق

وسيتصل اهتمامنا التالى بالتأمل ماذا يفعل ؟ والى أى شيء يقود ؟ ماهو :
(أ) تفسيره النفسى ؟
(ب) قيمته العملية (القائمة على الملاحظة والتجربة) ؟

والآن عند معالجة هذا الموضوع وما يصاحبه من الأحوال العقلية النادرة الأخرى فاننا نحاول أن نصفها ولكن بدرجة غير كافية « من الداخل » لذلك يمكن القول بأن المتصوفة فقط هم القادرون حقا على الكتابة عن التصوف لأنهم هم القادرون على الغوص إلي أعماق نفوسهم أو بواطنهم

ومن حسن الحظ أن كثيرا من المتصوفة قد كتبوا ونحن من خلال تجاربهم ومن مستكشفات علم النفس استطعنا أن نصل إلى نتائج جوهرية . وعلى العموم فإنه يبدو من تلك العوامل أن عملية التأمل تمثل بالنسبة للمتصوف بوابة نفسية أو طريقة يمكن بها الانتقال من مستوى من الوعى أو الأدراك إلى مستوى آخر - وباللغة الفنية فانها الشرط الذى يصل به إلى حقل الفهم (درجة الفهم) ويحصل على نظرة متميزة عن الكون . إن تلك النظرة المتميزة والتى ليست بالغريبة على أى عقيدة أو جنس يثبتها تاريخ التصوف . ويشير هذا بوضوح كاف إلى أنه فى بعض الأشخاص يوجد نوع آخر من الإدراك أى أن هناك « حس » (Sense) آخر قد يتحرر ويصل إلى ماوراء القوى الطبيعية للبشر كما أشرنا إليه من قبل . إن هذا الإحساس له إتصال بكل من العاطفة والعقل والإرادة ويمكنه التعبير عن نفسه فى كل المظاهر التى تحسها تلك الوجدانات ، ولكنها مع ذلك تختلف عن القوى العاطفية السامية والحياة الذهنية والوجدانية للأشخاص العاديين . ولقد عرفها أفلاطون « Plato » بأنها ذلك الإدراك أو الوعى الذى يمكنه فهم العالم الواقعى للأفكار . إن تطويرها هو الهدف النهائى الذى تصفه الجمهورية (جمهورية أفلاطون) أو مايسمى بالأ فلاطونية على أنه نوع من التفكير يختلف عن ذلك العقل المنطقى الذى يمحص ويحلل وكما يقول فإن وظيفته هى فهم ما يتجاوز الشعور أو بلغة نابليون عالم المفهوم « Intelligible »

انه ذلك الشعور - كما تقول « دائرة المعارف « الدينية الألمانية « بالقدرة على رؤية الخلود » إنها عين الروح الغامضة التى بها رأى القديس أوغسطين النور الذى لايتغير . وكما يقول الغزالى وهو أحد الصوفية الايرانيين فى القرن الحادى عشر (إنها فهم مباشر كأنما يلمس الإنسان الهدف بيدية) وفى كلمات تابعة المسيحى العظيم سانت برنارد (إنها يمكن تعريفها بأنها فهم الروح الذى لايخطئ إنها الفهم الغير متردد للحقيقة . أو كما يقول توما الاكوينى (إنها الرؤية البسيطة للحق التى تنتهى بحركة الرغبة) .

إنها عملية مرتبطة تماما بالحب المشتعل ، فإنها كما يبدو لكل من يملكونها حركة من حركات القلب أساسا ترتبط بأنفهم . على أن شدتها تنصب أصلا على الهدف الأسمى للفكر مع الإرادة القوية . وقد يعتبر البعض عملية التأمل شكل من أشكال الكسل الأعظم ، وفى حقيقة الأمر فان ذلك عملها الشاق الذى تدعى إليه النفس البشرية لتؤدية . إنها الطريقة الوحيدة المعروفة التى يمكننا بواسطتها أن نمتلك بوعى وادراك كل قوانا ونرتفع بها من المستويات الأدنى للادراك إلى المستويات العليا ونصبح مدركين أكثر لتلك الحياة الكبيرة التى تنغمس فيها ونصل عن طريقها كذلك إلى الاتصال بالشخصية السامية (الغيبة) التى بها ومنها تستمر الحياة .

ويظل هناك تناقضا لدى الصوفية يبدو فى السلبية التى يظهرون بها وهى التى تهدف فى الحقيقة إلى حالة من النشاط الجاد والشديد جدا . وأكثر من ذلك انها حيث تغيب فلا يمكن أن يحدث أى عمل خلاق . ففيها ترغم النفس نفسها على السكون لكى تستطيع أن تحرر إحدى تلك القوى العميقة الساكنة فى الأعماق فى حالة الانسجام الناتج عن عبقرية التأمل التى ترفع الى أقصى درجات الكفاءة .

إن هذا العمل المريح ، كما يقول ولتر هيلتون « Walter Hilton » يعد حالة بعيدة كل البعد عن البطالة البدنية ، وبعيدة كذلك عن الأمن أو السلام الأعمى . إنها مليئة بالعمل الروحى ولكنها تسمى راحة لأن الروح المتسامية تتحر من نير الحب الجسدى ، وتحلق فى عالم علوى طليقة حرة بفضل موهبة الحب الروحى الذى يجعلها تعمل بسرور وبرقة وانسجام . ولذلك يمكن تسميتها

بالبطالة المقدسة والراحة المشغولة تماما . ولذلك فإنها حالة من السكون Stillness بعيدا عن الضجيج الشديد والضوضاء الجامحة للرغبات الجسمانية .

وإذا كان هؤلاء الذين عرفوا هذه القوى الكامنة على صواب فيما قرروه فإن النفس لم تكن على صواب حين افترضت نفسها مغلقة تماما أو بعيدة تماما من الكون الخارجي الحيقى True External Universe إنها تملك حاسة معينة ان استطاعت أن تستخدمها فسوف تستطيع أن تمد أصابعها الحساسة فيما وراء ذلك الغلاف الذى يغلف أو يحتوى على الإدراك العادى وتعطيها أخبارا عن حقيقة أعلى من تلك التى يمكن استخلاصها من تقارير الحواس . فالنفس البشرية المتطورة تماما والمدركة تماما ، يمكن أن تفتح محيط المعرفة التى تستغرق فيه . إن هذا العمل وهذه الحالة من الإدراك هى التى تتجاوز فيها الحواجز وفيها ينساب « المطلق » فى أعماقنا ، كما أننا نندفع إلى أحضانه وساعتها نشعر ونحس بالمطلق « Infinite » فوق كل عقل وأكبر من كل معرفة . إن ذلك حقا حالة صوفية ، إن قيمة التأمل هو أنه يميل إلى إنتاج أو الوصول إلى هذه الحالة . وهى إطلاق الشعور الأسمى (Transcendetal sense) أو الحاسة الفائقة فيتحول من الخدمة الدنيا التى يعيشها الإنسان العادى فى ظل بيئة أرضية الى الخدمة العليا معتمدا اعتمادا كليا واعيا على الحقيقة Reality التى فيها نعيش ومنها نستمد وجودنا .

(٣) طبيعة الإدراك السامى :

ثم نتسائل بعد ذلك ماهى طبيعة ذلك الشعور ذلك الإدراك السامى وكيف يحرره التأمل ؟

إن أى محاولة للاجابة على هذا السؤال تجرنا إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة الفيزيقية للإنسان مظهر من مظاهر الاهتمام الشديد للطالب من النوع الصوفى . ولقد راجعنا السبل الرئيسية التى يتفاعل بها الوعى مع التجربة . إن الإدراك أو الوعى السطحى قد درب طوال عصور طويلة ليتعامل مع عالم الحس. إننا نعلم مع ذلك أن شخصية الإنسان غامضة وأكثر عمقا من كمية الشعور الواعى لديه وكذلك أكبر من فكره وارادته . إن هذه الأنا العليا التى يعرفها كل

منا لاتكاد تقارن إطلاقا بأعماق الإرادة التى تخفيها . ان لو « Law » يقول (إن هناك عمقا وجذرا داخلك)[1] تنبثق منه كل الملكات كخطوط تنبعث من مراكز أو كفروع من جسم شجرة .

إن هذا العمق يسمى المركز ، الأساسى أو الرصيد أو قاع النفس ان هذا العمق هو الوحدة أو الأبدية « Eternity » ، لقد قلت ماهو مطلق فى الروح انها مطلقة لدرجة لايستطيع أى شىء اشباعها أو أن يعطيها الراحة ماعدا لانهائية الله سبحانه وتعالى) .

وحيث أن الإنسان العادى لايستطيع أبدا إقامة علاقات كاملة مع الحقيقة الروحية بواسطة الحس والشعور والفكر والإرادة لأنها لاتوجد بوضوح إلا فى أعماق نفسه . وفى هذه المستويات المختلفة للشخصية فانه يجب أن نبحث إن شئنا العثور على هذا العضو أو القوة التى عن طريقها سوف نحقق « المطلب الصوفى » إن هذا التغير فى الإدراك الذى يحدث فى حالة التأمل يمكن أن يعنى البروز من « قاع هذه الروح » بروز ملكة من الملكات التى كانت مخبأة فى الأعماق . إن علم النفس الحديث فى مفهومه للشخصية السامية اعترف بأنها تكمن وراء وخلف مجال الوعى أو الإدراك . لقد بحث هذا الموضوع حقا وحدد هذا الإقليم اللا معروف الذى يبدو أنه يعرف الكثير عن اللا وعى أكثر مما يعرفه عن الوعى أو الحياة المدركة الواعية للإنسان . وفى هذا المكان تجد القوى الحيوانية إلى جانب القوى الروحية (القرد والنمر الى جانب الروح) .

إن العقل الباطن يفسر لنا كثير من الأشياء كالهستيريا والعبقرية والتنبؤ والهيام .. الخ . إن عالم النفس يجد صعوبة ظاهرة وإن كانت قليلة فى إرجاع الظواهر الرئيسية للدين والتجربة الصوفية الى أنشطة من اللاوعى تبحث عن الاشباع ـ اشباع الرغبات المكبوته . مع ذلك فإن اللاوعى « Unconscious » اسم مناسب لتوحيد هذه القوى والأجزاء والصفات النفسية التى لا تكون مدركة أو واعية فى أى وقت محدد أو التى لاتعيها الذات الدنيا .

---

(١) يقول فرانكو Francois . إن هنا هو الجذر الذى يعد عمق الروح وهو الذى يسميه آخرون مملكة الله . وتظهر هذه النظرية فى التصوف المسيحى برموز مختلفة .
See The Varaietics of Religious Experience ; P . 155 .

وتشتمل منطقة اللاشعور أو اللا وعى على كل الأنشطة الالية فى جسم الإنسان السليم الصحيح البدن . وبتلك الأنشطة تستمر حياة هذا الجسم إن كل هذه الغرائز الغير متحضرة وكذلك الرذائل ، تظل كما هى وكما كانت فى الإنسان الأول والتى أخرجها التدريب من مجرى الشعور والإدراك والتي ترسل رسائلها إلى السطح فى شكل مبتكر بعناية ، وفي تلك الأعماق السحيقة أيضا تعمل تلك الأمانى والأشواق التى لاتترك لها الحياة المليئة بالمشاكل مكانا . وفى أعماق تلك البحيرة وفى قلب الشخصية تنبعث منها فى بعض الأحيان رسالة قد تصل إلي مجال الشعور . وعلي ذلك فإن الإنسان العادى يجتمع فيه الحسن والردىء . الأجزاء أو الصفات الحسية المتوحشة ، والصفات الروحية للشخصية وكل ذلك كما يقولون تحت العتبة .

يلى ذلك أننا حينما نجد أنه من المناسب ومن الضرورى حقا أن نمكن أنفسنا من رموز ورسوم علم النفس فى تتبع الطريقة الصوفية فإننا يجب ألا ننسى المغزى الغامض والمعنى الواسع الذى يرتبط بتلك الرموز وما تمثله . كذلك يجب ألا نسمح لأنفسنا باستعمال كلمة اللاشعور « Unconsciousess » كمرادف لحس الإنسان الأعلى أو الشعور الغيبى له . وهنا تجدر الإشارة إلى أن الصوفية أظهروا روحا علمية أكثر وقوى دقيقة للتحليل . وذلك أكثر من علماء النفس ، كما أنهم أدركوا أنه في الإنسان العادى تكمن « الحاسة الروحية »[1] تحت عتبة الوعى أو الشعور وبالرغم من أنهم لم يكن لديهم استعارات ومصطلحات المدرسة الحديثة ولم يستطيعوا وصف كيفية صعود « ascent » الإنسان الى الله فى هذه التعريفات أو المصطلحات التصويرية للمستويات ، والاندفعات ، والهوامش ، والمجالات ، والاعتراض ، والكبت ، والتسامى . وهى المصطلحات التى أصبحت معروفة الآن للباحثين فى الحياة الروحية . وهم لايتركونا فى أى شك فيما يتعلق برؤيتهم للحقائق . وأكثر من ذلك فإنهم يعنون بتاريخ الإنسان الروحى بالدرجة الأولى كما يهتمون ببروز الحاسة السامية واستيلاؤها على مجال

---

(١) يطلق جيمز على طريقة عمل هذه الحاسه مصطلح « حالة من الوعى الصوفى العميق »
Extreme state of Mgstical Consciousness - The varies of Religious Expeerience ; P. 375.

الشعور مما يفتح الطريق أمام تلك السبل أو الطرق التى تسمح بانطلاق حياة روحية قادرة على فهم الحقيقة الأكبر أو الحقيقة العليا . إن هذا العمل كعمل منفصل حتى الآن هو التأمل الذى يعد جزءا من عملية الحياة العامة ، وله نتائج دائمة يسمونها الميلاد الجديد « The New Birth » الذى يجعل الشخص أو الملكة المعنية بالميلاد الجديد حية تجعل الإنسان الروحى « The Spirictucel man » قادر على الرؤية الروحية والحياة التى انفصلت عن الإنسان الأرضى (السفلى) Earthey man .

(٤) عضو الوعى الروحى فى الإنسان :

إن الجانب الروحى يعد شيئا محددا أو نقطة من الإنسان لاتنتمى إلى الزمان بل إلى الأبدية وهى نقطة مختلفة فى النوع عن طبيعته البشرية الموجود فى إطار معد ليلائم متطلبات العالم الطبيعى فقط . إن عمل المتصوف في نظر هؤلاء المتخصصون القدامى هو إعادة صنع أو نقل شخصيته الكلية بالاهتمام بنفسه الروحية التى يحاول أن يخرجها من معوقاتها ويوحد نفسه حولها كمركز ، وهكذا يرتدى الإنسانية المقدسة .

إن النواة المقدسة نقطة الصلة بين حياة الإنسان والحياة المقدسة التى انغمست فيها وحفظت أعطيت الكثير من الأسماء فى مجال تطور العقيدة الصوفية . إنها كلها بوضوح تعنى نفس الشىء على الرغم من تأكيدها على المظاهر المختلفة لحياتها فأحيانا تسمى الـ « Syntresis » الحافظ على وجوده أو الحارس لوجوده وأحيانا تسمى وميض الروح The Spark of the Soul وأحيانا تسمى « Apex » أى النقطة التى عندها تلمس السماء ، أو Funk Lien فى التصوف الألمانى ، أى انتقال مفاجىء إلى الطرف الآخر للميزان الرمزى ولكى يؤكد مساهمته فى الوجود النقى « Pure Being » الذى يعد أكثر من مجرد اختلافها عن الطبيعة التى تسمى أرض الروح « The Ground of the Soul » والتى تعد الأساس أو المادة الأساسية التى يسكنها قبس من الله ، وحيث تنبع كل الحياة الروحية . وبوضوح فإن كل هذه التسميات والتخمينات والافتراضات كلها تفهم بالمعنى الرمزى لأنه كما لاحظ مالافال « Malaval » ردا على الاستفسارات القلقة

لطلبته حول هذا الموضوع « أن نفس الإنسان هى شىء روحى كلى لذلك فإنها لايمكن أن يكون لها أقسام أو أجزاء . وكنتيجة لذلك لايمكن أن يكون لها ارتفاع أو عمق أو قمة أو سطح . ولكن لأننا نفسر الأمور الروحية بمساعدة الأشياء المادية ـ حيث نعرف عن تلك الأخيرة أكثر وأفضل لأنها مألوفة لدينا ـ فاننا نسمى أعلى كل الأشكال والمفاهيم بالقمة . وأسهل طريقة لفهم الأشياء هو السطح « سطح الفهم » .

ومن ثم فعلى أية حال مهما كان الاسم الذى تختاره لها فإنها جهاز أو عضو الوعى الروحى للانسان وهى المكان الذى يقابل فيه المطلق وهى أساس حياته الحقيقية . فهنا مكان الشعور الغيبى أو بداية ونهاية ماوراء الطبيعة « Metaphysics » وهى كما يقول البروفسور سيتيوارت « Professo Stewart» « هى الشعور الغامض بالوجود السرمدى « Timeless Being » وهو ماكان وما هو كائن وماسيكون مظللا لنا . وكما يقول الكاتب إنها ذلك الشعور الغيبى الذى يظهر طبيعيا كإيمان بقيمة الحياة وكشعور بالوجود الأبدى أو السرمدى وليس عن طريق البناء الفكرى أو التركيب التخمينى . إن الشعور أو الادراك يقترب من هدف علوم ماوراء الطبيعة أو الحقيقة المطلقة « Ultimate Reality »

إن وجود مثل هذا الإحساس «Sense » كجزء حيوى من وظيفة وعمل « الإنسان الكامل » قد تأكد وتأصل ليس فقط من قول المتصوفة ولكن قاله أيضا الباحثون فى كل العصور . قاله المصريون واليونانيون (الأغريق) والهنود وقال به الشعراء والفلاسفة والقديسين . إنها عقيدة تمثل فى واقعها جوهر الدين المسيحى ، بل حقا انها جوهر كل ديانة تستحق ذلك الاسم إنها المبرر للتصوف والزهد والنقطة المطلقة التى تلمس عندها طبيعة الإنسان المطلق أو الكامل « The Absolute » ، إنها أرضة أو مادته أو وجوده الحقيقى تتخلها الحياة المقدسة التى تشمل وتحتوى على حقيقة الأشياء الكامنة (الحقيقة الكامنة للأشياء) . وذلك هو الأساسي الذى تقوم عليه دعوى الصوفية بامكانية الاتحاد مع الله . وهنا فانهم يقولون ، تكمن حلقة الاتصال مع الحقيقة وفى هذا المكان وحده يمكن أن يحتفل بالزواج الذى يأتى منه الرب Lord .

ولكى نستعمل شكلا آخر من الأشكال الخاصة بهم فإنه بفضل الومضة الخالدة من النار المركزية الموجوده فى ذاته يطلق على الانسان أنه ابن اللانهائى . ولذا فان الطريقة الصوفية لابد أن تكون الحياة والطريقة والمبدأ الذى سيغير حياته الفعلية لكى تحوى هذه الشرارة فى حقل الوعى فتخرجها من مخبأها من تلك المستويات الجوانية (السلفية) حيث تحفظ وترشد وجوده الطبيعى وتجعله الأمر السائد الذى ترتب عليه شخصيته (تجعله المحور الذى تدور حولـه شخصيته) .

إنه من الواضح في ظل هذه الظروف العادية وفى ظل الشعور الشعور الغيبى السامى المتعلق (بالجنون المنقذ) كجنون الفن أو الحب فإن الذات لاتعرف شيئا عن اتجاه المشاهد الصامت أو العين الداخلية المتجهه إلى الرسائل القادمة من العالم الأسمى لا الى الأنشطة التى تستيقظ بداخلها .

ولأنها تركز علي عالم الحواس أو العالم المحسوس فهى لا تعرف شيئا عن العلاقات القائمة بين هذه الموضوعات والهدف الرسمى لكل فكر . ولكن عن طريق التأمل المتعمد والتركيز المقصود يستطيع المتصوف أن يغوص إلى أرض الروح حيث يقبع الاحساس الغيبى السامى داخل منطقة الوعى فتجعلها متلائمة لنشاطه وههنا يصبح غير مدرك لعالمه الخارجي . وكذلك تظهر أو تطفو علي السطح مجموعة من الأحاسيس الأساسية التى لايمكن أن تجد لها فرصة فى الظهور فى الظروف العادية . وبعض من تلك الأشياء تتحد مع ملكات العقل الطبيعية بل وأكثر من ذلك فإنها تحل محلها . فمثل هذا التبادل أشبه بالذى يفقد لكى يجد وتبدو هذه العملية كعملية ضرورية إذا كان لقوى الإنسان الغيبية أو العليا أن تأخذ فرصتها كاملة .

« ان عينا روح الانسان » كما تقول (الأساطير الدينية الألمانية) Theologia Germanica » تطور صورة أفلاطونية عميقة لايمكن أن تؤدى عملها فى الحال ، ولكن الروح سوف ترى بالعين اليمنى فى الأبدية وحينئذ لابد للعين اليسرى أن تغلق نفسها وتمتنع عن العمل وتكون كما لوكانت ميته . فلو قامت العين اليسرى بعملها كاملا نحو الأشياء فإنها سوف تعوق العين اليمنى عن

عملها أى تعوقها عن تأملها[١] . ولذلك إن من معه واحده فعليه ترك الأخرى لتذهب لأنه لايوجد انسان يستطيع خدمة سيدين فى وقت واحد . إن فى داخلنا قدرة هائلة للفهم لتلقى الرسائل من الخارج وقليل من الوعى أو الإدراك الذى يتعامل معهم .

إن بداخلنا طاقة هائلة للتصور والاستقبال الرسائل القادمة من الخارج. والقليل من الوعى الذى يتعامل معها ، وهو أمر أشبه بما يحدث مع عامل التلغراف الذى يكون مسئولا عن عدة خطوط فى نفس الوقت لكنه لايمكنه الانتباه لأكثر من خط واحد فى وقت واحد مع أن الكل يعمل معا[١] .

إنه من المعروف شعبيا وفى اللغة الدارجة أنه لايمكن لشخص واحد الانتباه إلا لأشياء قليلة فى وقت واحد ، انها الأشياء التى تملأ مركز شعورنا وهى الأشياء التى تركز عليها البصيرة والرؤية . إن الأشياء الأخرى الداخلة فى مجال الوعى تتقهقر لتفسح مجالا لما هو فى مركز الشعور ، وبالرغم من أننا نعى وجود هذه الأشياء إلا أننا لانعيرها انتباها ونحن نفتقدها بصعوبة إذا ماكفت عن االوجود .

(٥) حالات الإدراك الفائق للحس والمرض النفسى :

إن الأمور الغيبية تمثل بالنسبة لمعظمنا أمر خارج الهامش لأن معظمنا قد سلم كل وعيه وادراكه للحواس وسمح لها ببناء كون تقنع بالبقاء فيه . ولكن فى بعض الحالات المعينة فان التذكر والتأمل والانسجام والجذب أو الفناء وكل مايتحالف معهم من الأحوال تثير فى النفس مايجعلها تعود لساكنها الأصلى أو لقوها العميقة فتغلق سبل الجسد « أى أنها تخمد الحواس العادية وتوقفها ،

---

(١) إشارة إلى أن الحواس لاتعمل فى لحظة الإدراك السامى وكذلك لاتعمل العين الباطنية حال الإدراك الحسى . المترجم .

(١) من المعروف طبقا لحقائق علم النفس أن الانسان لايمكن أن يتنبه لأكثر من مثير واحد فى نفس الوقت لذلك فعندما تشغل الحاسة الروحية باستقبال الرسائل القادمة من عالم القدس فإنها لاتدرك شيىء آخر سوى هذه الرسائل . راجع

R.A.Nicholsom ; London 1975 . P.55.

وتسمح لهذه القوى البارزة أو التى طفت على السطح أن تكون قادرة على التقاط الرسائل من موقع آخر من الكون بدورها . وحينئذ يتراجع العالم الحسى خلف الهامش وتندفع فيه رؤى أخرى . وأخيرا فاننا نبدأ فى ملاحظة مايفعله التأمل بالمبادرين به . إن، أحد الأسماء التى تنطبق على هذه السلسلة من العمليات التى من هدفها التغيير فى التوازن العقلى « equilibrium » تنويم النفس العادية التى غالبا ماتكون نائمة ، وإيقاظ النفس الغيبية التى تنام عادة ..أما بالنسبة للإنسان فتسمى نقطة الالتقاء فى تلك المراحل المتصلة بالحقيقة بالرغم من أنه نادرا مايضع فى الإعتبار تلك القوة التى لامثيل لها والتى تختار عالمه الخاص .

وتعرف هذه الظاهرة بالشخصية المزدوجة أو المنفصلة التى ربما قد تعطينا لمحة عن آلية طبيعة التغير التى يمارسها التأمل . وفى هذه الحالة المرضية فإن شخصية المريض تذوب كما أن مجموعة من الصفات أو الخصائص كما كانت تستخلص من الشعور وتترابط تماما لتكون لنفسها شخصية عادة ما تكون مغايرة للنفس المعروفة للعالم حيث أنهاتتكون تماما من تلك العوامل (العناصر) التى تحذف منها .

وهكذا فانه في الحالة التقليدية للآنسة بيشامب miss Bieauchamp فإن الباحث وهو الدكتور نورتون برنس « Norton Prince » قد أعطى أسماء تلك الشخصيات الثلاث من خصائصها المميزة لها وهى المرأة « The Woman » والشيطان « The Devil » والقديس « the Saint » . إن مجمل الشخصية التى تكون الآنسة بيشامب قد إنقسمت إلى هذه الأقسام الثلاثة المتناقضة وكان كلا منها يسيطر عليها لانسحاب الآخرين منها ، وعندما تخمد الشخصية التى تسيطر عليها سواء إراديا أو لا إراديا فإن احدى الشخصيات الأخرى تبرز على السطح .

وكان التنويم « Hypontism » إحدى الوسائل التى تؤثر فى هذا التغيير بسهوله .

وأما بالنسبة لذوى العبقرية الصوفية فان الصفات التى تميل للبقاء تحت عتبة

الشعور أو الوعى بسبب ضغط الحياة العادية ذات قوة ضخمة . ففى هؤلاء المستكشفين للأبدية فان ملكة المعرفة الأعلى « transcendent al faculty » أو عين الروح ليست فقط موجودة فى فترة النضوج ، ولكنها متطورة بدرجة كبيرة ومتحدة بقوى عاطفية ووجدانية عظيمة ، وان نتيجة تفاعل تلك العوامل والخصائص تحت عتبة الشعور من المفروض أن تزيل منها الاحتكاك بين هذه العوامل والاتجاهات المضادة للتوازن عند سطح العقل الواعى والتى قد تتصادم معه . إنها فى الخفاء كما يقول جاكوب بوهم « Jacob Bohme » إنها تتطور دون تراجع إلى أن تصل إلى النقطة التى تصل فيها قواها الى تكسير الحواجز وتبرز الى مجال الوعى والشعور . اما بسيطة ، مؤقتة مسيطرة كما فى حالة النشوة أو بصفة دائمة تحول نفسها إلى مايعرف الحياة الاتحادية « Unitive Life » . إن بلوغ هذه النقطة قد يزداد سرعة بالعمليات التى يعرفها ويقدرها الصوفية والتى تنحو وتميل إلى إنتاج حالة من الوعى يصنفها علماء النفس مع الأحلام أو الشجون أو التنويم الذاتى . وفي كل هذه الأحوال فان الوعى الظاهر علي السطح قد يتأرجح عمدا أو كرها وتستبعد الصور المتصلة بالحياة الطبيعية وتحل محلها الصور والملكات الموجودة فيما وراء هذا الباب .

وبالطبع فان هذه الملكات والصور قد تكون أولا تكون أكثر قيمة من تلك الموجودة فعلا على سطح الشعور . ففى الموضوع العادى ليس هناك سوى بعض الغرائب والأهداف التى لايجد العقل الباطن فيها أى فائدة . أما فى حالة الصوفية فالأمر يختلف تماما وهذه الحقيقة تبرر الوسيلة الغريزية التى تستخدمها لتؤمن بروزها وظهورها . وفى التصوف الهندى فإن نظامه الخارجى يقوم على : أولا : السمو والزهد «Assenticism » والسيطرة على الحواس . ثانيا : الممارسة العمدية (الارادية) للتنويم النفسى « Self Hyponotization » إما بتثبيت النظر على هدف قريب أو بتكرار رتيب للكلمة السرية «Mantra» . بهذه الأشكال التنظيمية للتأمل وأشكاله فان الجذب لعالم الظواهر يضمحل ويوضع العقل فى المكان السامى تحت تصرف القوى تحت الواعية . إن الرقص والموسيقى وكل التجاوزات والمبالغات للإيقاع الطبيعى ضغطت كلها فى الخدمة التى يقدمها الإله الأغريقى ديونيسيس أو بواسطة العارفين المتصوفة أو طوائف التصوف الأخرى . إن هذه الممارسات والعمليات تؤثر بالفعل ولها تأثير ملحوظ

على إدراك الإنسان وثبت ذلك كله عن طريق التجربة . إن الوصول إلى حالة الهيام والمتعة بالطريقة الصناعية أو الإدارية كلها ضد التأمل المسيحى الطبيعى أو الغريزى . ولكننا نجد هنا أو هناك أمثلة لهذه الحالات من الهيام أو الجذب والتى يكمن وراءها أطلاق القوى الخفية (الغيبية) فى الانسان قد حدثت بوسائل حسية بحته . وهكذا يتحدث « جاكوب بوهمه » عن العارف الإشراقى « Theosopher » الذى يحملق فى اناء مملوء من الماء تنعكس على صفحته أشعة الشمس ويخيل إليه حين ذلك أنه ينظر إلى أعماق المبادىء وأغوار الأشياء. وكذلك تأمل المياه الجارية أحدث نفس التأثير على القديس «Ignatius Layola » عندما جلس على حافة النهر ذات يوم يواجه المجرى المائى الذى كان ينساب عميقا عند ئذ « تفتحت عينا عقلة ولكن ليس لترى مجرد حلم أو رؤية ، لكن لكى تفهم وتتأمل الأشياء الروحية . ويمثل هذا الوضوح بدت كل الأشياء جديدة أمامه » . إن هذه الطريقة للوصول إلى المتعة العقلية بتضييق وتبسيط مجال الوعى تجد لها مايوازيها فى ممارسة عمانويل كانت « Immanuel Kant » الذى وجد أنه يستطيع أن يصل إلى فكر فلسفى أفضل عندما يحملق بشدة واستمرار إلى برج الكنيسة المجاورة[1] .

ولكن الكتاب العقلانين ينكرون ذلك التوازن أو التوافق الذى يقدمه الفنانون والفلاسفة عن الأفكار أو الحوار الفردى « Mon0 idieism » « وتنويم الذات » فى حياة الصوفية ويرجعون ذلك الاضراب الجسمانى الذي يصاحب تلك العمليات ، والذى بتطبيقة يصلون إلي مفاهيم غير عادية وعبقرية تأملية ، يرجعون ذلك الى الهستريا أو الى مرض آخر . ولم يترددوا فى نعت القديس بول « St Poul » بأنه مصاب بالصرع « Epilleptic » كذلك وصفوا سانت تريزا براعية الهستيريا والتخريف ، ووجدوا فى أوصافهم مكانا لكل من يمارس الأعمال الروحية فى متحف الباثولوجى ، لقد ساعدهم فى تلك المهمة تلك الحقيقة المعترف بها أن المتأملين العظام على الرغم من كونهم أشخاص ذوى ذكاء ومقدرة عقليـة عملية باهرة مثل بلوتو ، أو « سانت برنارد » أو القديستين

(١) مثل هذه الأمور من تركيز النظر على صفحة الماء أو برج الكنيسة ماهى إلا نوع من أنواع التأمل وإن كانت الاستعانه فيه تتم من خلال أمور حسية ، المترجم .

كاترين ؛ « وسانت تريزا » « والقديس جون » ، حامل الصليب ، والشعراء الصوفيون من أمثال « جامى » « وجلال الدين الرومى » إلا أنهم عانوا من حالات من اضطراب صحى وبدنى ، وأن قدراتهم الصوفية النورانية قد انعكست على أجسادهم بطريقة معينة ومحددة مسببة لهم حالة مرضية من نوع معين ونوع من العجز البدنى تصحبه آلام واضطرابات ليس لها سبب عضوى معروف اللهم الا اذا كان ذلك السبب هو التشتت الكبير الذى تمارسه الروح السامية على الجسد الذى أعده الله لنوع مختلف من الحياة .

ولكنه من المؤكد أن هذا النوع من العقل السامى الحساس الذى نسميه بالصوفى يسبب هذا التشتت ولكن ليس فى كل الأحيان وتصحبه تعديلات (ليس لها تفسير) على الأجهزة العضوية التى يرتبط بها . إن الأمور الخارقة للطبيعة ليست هنا محلا للبحث أو محل اتهام ، سوى أننا نميل إلى اعطاء ذلك الاسم للظواهر الطبيعية Stigmatisation التى لا نستطيع فهمها . لأن مثل هذه الحالات السيكوفيزيقية الخارقة للطبيعة التى حدثت لهؤلاء الناس باعتبارهم قديسين لايمكن حدوثها لأى فرد . وللروح دون شك تأثير معدل على القوانين الصارمة التى تحكم الحياة الجسدية ومثال ذلك المعروف عن قصة القديستين سانت كاترين فى سيناء وسانت كاترين فى جنوا .

وعلى الرغم من الأبحاث التى قام بها كل من موريسيرا « Murisier » وجانيت « Janet » « وريبوث Ribot » وكثير من علماء النفس ومحاولاتهم الدائبة لايجاد تفسير باثولوجى (عضوى) يناسب حقائق التصوف ويفسر تلك الظواهر الجسمانية الغريبة التى تصاحب عملية التصوف أو التأمل . كل هذه الأبحاث تنتمى إلى مشاكل الانسانية التى لم تحل حتى الآن .

إنها فى حاجة إلى إبعادها عن مجال العجائب ومجال الأمراض ـ التى يضغط عليه كل من الأصدقاء والأعداء ، ولابد أن تتحول إلى مجال علم النفس لتبحث وتدرس دراسة كاملة ووافية بعيدا عن كل المؤثرات ، إن وجودها لايدنس قداسة الصوفية أو يشكك فى سلامة نتائجها رغم الأحوال العصبية التى تلاحظ علي الفنانين ـ الذين يشاركون إلى حد ما الفهم الصوفى للحقيقة ـ ولا يقلل من فنهم شيئا . ففى حالات مثل حالة Kant وبتهوفن Beethoven يقول فون

هيجل « Hugel » إن المصنف للإنسانية طبقا للظواهر السيكوفيزقية (النفسجسمانية) وحدها لابد وأن يضع هؤلاء الفنانين والمبدعين والمكتشفين دون تردد بين العجزة والمكبوتين أو القلقين .

ففى حالة الصوفية يبدو أن أعراض مرض الهيستيريا المتمثلة فى عملية انفصال الوعى ، وإعادة ترتيب عناصره وتحوله إلى الحالة الآلية ، وحالة الهيام من الأعراض المصاحبة لظواهر التصوف مما دفع البعض إلى أن يربط بين هذه الظواهر الروحية وبعض الظواهر البارزة ، مثل ماكان يبدو على (تاجليون) Taglioni من عبقرية أو أعراض مرض القديس فيتوس St. Vitus . وكلا من الفن والمرض له علاقة بالحركات الجسدية ، وكذلك فان كل من التصوف والهستيريا مهما سيطرا على مجال الوعى والشعور بفكرة واحدة قوية وحاده هى فكرة الوحى أو الحدس التى تحكم الحياة الروحية مع ذلك فإنها تبقى قادرة على إحداث نتائج نفسية وبدنية مذهلة . وعند مريض الهيستيريا فإن هذه الفكرة غالبا ماتكون تافهة أو عديمة الجدوى ولكها تصبح بفضل هذه الحالة العقلية المضطربة عاملا سببيا . أما عند الصوفى فإن الفكرة المسيطرة والسائدة هى فكرة عظيمة جدا فى الحقيقة لدرجة أنها عندما يتم تلقيها كاملة عن طريق الوعى والإدراك الإنسانى فإنها تمحو ماعداها (أو تسيطر على ماحولها) بالضرورة . انها لاتقل عن فكرة الفهم (فهم الحقيقة الغيبية) ووجود الله سبحانة وتعالى . ومن ثم فان الفكر اللدنى للمتصوف هو أمر منطقى بينما الأمر عكس ذلك فى حالة المريض بالهستيريا .

وعموما بينما تظل العلاقات النفسية الجسدية « Poycho - Physical » مفهومه بدرجة قليلة فانه يبدو من الأسلم جدا ومن منطلق علمى أن نكبح جماح أحكامنا على معنى الظواهر النفسحسية التى تصاحب حياة الصوفية بدلا من النقد الهدام للحقائق الغريبة التى قد تحتمل أكثر من تفسير . ولكى نستخلص أو نستنبط شكل مركب للشخصية من خلال الأمور الجانبية فإن ذلك لايكون مأمون تماما .

إن أجسامنا هى مواد أو أشياء حيوانية خلقت للنشاط الحيوانى (الغريزى) ولكن عندما تصر روح قلقة ذات نشاط غير غادى على استعمال الخلايا العصبية

لأنشطة أخرى فانها ترتطم بالحواجز وترتد كما يقر بذلك الصوفية أنفسهم وتوقع عقابها على شكل «ضعف صوفى» . ويقول تولر «Touler» صدقونى يا أولادى إن الشخص الذى يعرف الكثير عن هذه الأمور العلوية لابد له أن يظل دائما على فراشه لأن هيكله الآدمى (جسمه البشرى) لايستطيع أن يساعده » .

« إننى أسبب لك آلاما جسمانية بارحة » كذا يقول صوت الحب لمشيل ماجديرج « Mechthil of Magdeberg » إننى لو أعطيت نفسى لك بالطريقة التى تريدها عادة فإننى أحرم نفسى من المأوى اللذيذ الذى آخذه منك فى الدنيا لأن ألف جسد لا تستطيع أن تحمى الروح المحبة من رغبتها وهكـذا « كلما كان الحب عظيمـا كان الألم عظيـما « the highest thlove ther greater the pain » . ومن ناحية أخرى فإن الشخصية السامية للصوفى واحترامه لذاته وقبوله البطولى للعمل والمعاناة وعزيمته الصلبة تزيد إلى درجة كبيرة القوى الطبيعية للعقل السامى الذى يملكه . وكذلك حالة التأمل - كما فى حالة التنويم للشخص العادى الذى يبدو أنها تفتح الآفاق العميقة للشخصية . وعندئذ تشرب النفس وترتوى من نافورة تغذيها الحياة الكونية (العالمية) وتصل فى تلك الحالة إلى إتصال بالحقيقة وكنتيجة لذلك فإن الموضوع نفسه يصبح واقعيا أكثر أو حقيقيا أكثر وتقول القديسة « تريزا » إن المتعة تصحب المرض دائما ، وتنبعث منها قوة جديدة لأن شيئا أعظم يعطى حينئذ للروح ويتم الاتصال بمستويات الوجود التى يتركها الوجود الروتينى اليومى دون أن يلمسها . وهكذا يمكن تفسير القوى الغير عادية للتحمل والاستقلال عن الظروف الخارجية التى نشاهدها عند الصوفية وغيرهم .

إننا إذا رأينا ، كما رأى البعض ، عند الصوفية بداية قوة أو وعى عميق وإدراك فائق يصل إليه السالك ببطء لذلك فمن المحتمل أنه عندما تظهر هذه الحالة فإن الأعصاب والأعضاء لابد أن تعانى وتقع تحت ضغط هائل حتى تستطيع التكيف مع تلك الظروف ، لأن الروح أكثر تنظيما من بيتها الجسدى وهكذا تتمكن من أن تفرض أحوالا غريبة على الجسم . فعندما إعتدل الإنسان واستقام أول مرة بدأت الأرجل توائم نفسها للحمل بعد أن كان الإنسان يسير على أربع بدأت الأرجل تتكيف لحمل ثقل جسم الإنسان ولابد أن الأرجل ثارت

على ذلك لأنها كانت متعودة على حمل نصف هذا الحجم ثارت علي مثل هذا الأمر الغير طبيعى وسببت للإنسان ألما شديدا ومتاعب عظيمة ان لم يكن هذا مرضا كاملا . إذن فمن الطبعى النظر إلى الأحوال النفس جسدية عند المتصوفة باعتبارها ثورة من جانب الأعصاب والأعضاء ضد نوع من الحياة لم تألفه بعد .

وبالرغم من تلك الثورة ومن العذاب الذى عرضتهم له حياة التصوف فإنه من الغريب أن المتصوفة هم من النوع المعمر (الذى يعيش طويلا) وهذه حقيقة محركة لكل نقاد المدرسة النفسية . ومن أمثلة هؤلاء الناس فإن القديس هيلد جريد « Hild grade » عاش حتى سن الحادية والثمانين (٨١ سنة) . وكذلك ماجد برج عاش حتى سن السابعة والثمانين ، وريز بروك حتى الثامنة والثمانين ، « وسوسو » حتى السبعين والقديسة تريزا حتى « ٦٧ سنة » ومن هنا يبدو أن حياة التصوف والاستسلام مكنتهم من أن ينتصروا على عجزهم البدنى وعاشوا يفعلون ماهو مطلوب منهم من عمل فى ظل ظروف لايستطيع العمل فى ظلها إنسان عادى .

إن هذه الإنتصارات التي تصل إلى مراتب البطولة فى تاريخ العقل البشرى قد صارت كقاعدة بنفس الطريقة لكل الأشخاص المحدسون ، فكل العباقرة وكل الفنانين الملهمين الذين لهم صلة بأهل التصوف ، كلهم يملكون العبقرية التى لدى المتصوفة وبلغة علم النفس (على عتبة التقلب الاستثنائى) ، بمعنى أن جهدا بسيطا لمغادرة الأحوال العادية سوف تسمح لقوى التسامى الكامنة لديهم أن تبرز وتحتل المجال العقلى . إن « عتبة الحركة السريعة » قد تجعل الإنسان عبقريا أو مجنونا أو قديسا ، كل ذلك يعتمد على القوى البارزة فعند الصوفى العظيم فإن هذه القوى الكامنة وراء الشخصية والموجودة تحت سطح الادراك العادى ثرية ثراءً غير عادى ولايمكن أن تفسر فى ظل قوانين الباثولجى (علم وظائف الأعضاء) ، وكما يقول دى لاكروا « Delacroix » إن هؤلاء الصوفية العظام لم يهربوا تماما من الومضات العصبية التى تحدد تقريبا كل الأجهزة الغير عادية - ففيها قوى خلاقة وحيوية ومنطق بناء ومجال ممتد للإدراك وباختصار فإن العبقرية هى فى الحقيقة الصفة الضرورية لهم . إن المتصوفة العظام كالمبدعين والمخترعين الذين وجدوا شغلا جديدا للحياة وهم الذين يتصلون بأعلى قمم الروح الإنسانية والمثل

العليا .

والحقيقة إذن كما نعرف حتى الآن يبدو أن تلك القوى التى على اتصال بعالم الغيب والتى تكون فى أدنى حدودها نصف النفس هى خاملة لدى الإنسان العادى الذى يقضى وقته كله فى الإستجابة لمطالب العالم الحسى ومع هذه القوى الكامنة تنام المجالات التى تستطيع أن تصل إليها . أما عند الصوفية فإن شيئا من ذلك لايحدث ـ فلاشىء ولاجزء من النفس يكون خاملا لقد ايقظوا الساكن فى أعمق أغواره وحوله وحدوا روحهم ، إن (القلب ، والعقل ، والإرادة) لديهم فى حالة عمل كامل يرسمون طريقهم ليس من خلال مظاهر الحسن ولكن من أعماق الوجود « Being » الحقيقى حيث يضاء هناك مصباح الوعى الروحى الذى يبقى خفيا على العامة ، إن المتصوف يمكن أن يطلق عليه الرجل الكامل حيث أن نصف القوى لدى الآخرين في حالة سبات عميق ، إن هذا الشمول والتوحد فى التجربة يصر عليه كل المتصوفة ، هكذا يقول الصوت الإلهى كما تقول القديسة كاترين سينا « Catherine of siena » (لقد ارتبك المعبر والخطوات أو الدرجات الثلاث العامة موضوعة هناك للقوى الثلاث للروح ، وأخبرتك كيف لايمكن لأى إنسان أن يصل إلى حياة السمو إلا إذا صعد كل هذه الدرجات بمعنى أن يجتمع لديه القوى الثلاث فى الروح .

ففى هذه النماذج الغير العادية للشخصيات التى نعطيها اسم العبقرية يبدو أننا نعطى لمحة عن العلاقات الموجودة بين هذه المستويات العميقة من الوجود وقشرة الوعى أو الادراك . فعند الشاعر والموسيقى (وعالم الرياضيات) العظيم أو المخترع تكمن القوى تحت السطح ولايكاد يسيطر عليها صاحبها بالإرادة المدركة (إرادة الإدراك) أنها تشغل دون شك جزءا كبيرا فى عمل الفهم والتلقى ففى كل العمليات الخلاقة فان الجزء الأكبر من العمل يتم تحت مستوى الشعور ويكون بروزها آليا بدرجة من الدرجات ويصدق ذلك القول على المتصوفة والفنانين والفلاسفة والمستكشفين والحكام . إن الدين العظيم والاختراع والعمل الفنى يرجع فى ظهوره إلى إندفاعه مفاجئة لمكنون الأفكار التى لاتستيع النفس السطحية أن تصل إليه ويعود حدوثها إلى قوى بعيدة عن سيطرة تلك النفس لدرجة أنها تبدو كما يقول صاحبها أحيانا « أنا أتيت من الغيب « أو » تفجرت

من الداخل « وبهذا الإلهام » « Inspiration » أو الفتح تنساب مياه الحقيقة التى تستحم فيها كل الحياة وربما ترفع من مستوى الإدراك . إن المعلم العظيم والشاعر والفنان لايهدف إلا تأثيره عن عمد بل يحصل على ذلك بطريقة لايدريها ربما من الاتصال الذى لايدركه مع تلك الطريقة الخلاقة التى يسميها الصوفية بالروح البناءة :

« Constructive Spirit » أو من عالم ماوراء الحس وأحيانا يقول العظيم فيلون الإسكندرى « Alexandrian Jew Philon »[(1)] « (عندما جئت إلى عملى خاليا ومن خلال الإلهام أو الوحى الإلهى أصبحت فى حالة انفعال شديد ولم أدرى بالمكان الذى كنت فيه ولا بالحاضرين فيه ولا بنفسى ولا بما كنت أقوله ولا بما أكتبه لأننى كنت حينئذ أتكون من ثراء من التفسيرات ، ومتعة بالحياة ورؤية ثاقبة وطاقة غير عادية لعمل كلّ ماكان مفروضا أن يعمل ، وكان التأثير على عقلى واضحا كرؤية العين لشىء أوضح مايكون . إن هذه متعة خلاقة حقا تتوازى بشدة مع الحالة التى كان يؤدى بها المتصوف عمله الخارق .

إن ترك النفس على سجيتها هادئة فاهمة قابلة للتلقى ـ تلك هى الشروط التى يجب أن تتوفر للفرد لكى يتم لها الاتصال بالحياة العالمية أو الكونية « Cosmic Life » وكما يقول رفائيل الصغير إلى ليوناردوا دافنش » لقد لاحظت أنه عندما يريد الإنسان أن يقوم بالرسم فيجب ألايفكر فى شىء وسوف يتحسن كل شىء » . إن النفس الخارجية هنا لابد وأن تعترف بعدم كفايتها وأنها لابد وأن تصبح الخادم المطيع والمتواضع لإدراك أعمق وأكثر أهمية . إن الصوفية لهم نفس الرأى « دع الإرادة تفهم بهدوء وعقل » كما تقول القديسة تريزا » إنه ليس بفضل بالعمل من جانبنا نستحق رحمة من الله «ويقول كذلك اريكهارت» « Erkhart» إن أفضل طريقة وأحسنها للعيش فى هذه الحياة هى الصمت وأن تدع الله يتكلم ويعمل فعندما تتوارى كل القوى عن العمل والكلام تكون الكلمة من الرب ... كلما استطعت ابعاد قواك ونسيت المخلوق كلما تقربت إلى الله وكلما كنت أكثر استعدادا للتلقى من الله .

---

(1) W James The Varietes of Religious Expperience , P. 481.

وهكذا يقول بوهيمة « Boehme » ونيوفيت « Neophyte » عندما يكون كل من العقل والإرادة هادئين صامتين سلبيين لمعانى وتعبيرات الحياة الأبدية والروح كلما حلقت الروح بعيدا فى الآفاق ، فإن الحواس وقوى الخيال يتم حجزها عن طريق المعنى الإلهى الخالص . وحينئذ سوف يتكشف لك السمع والبصر والكلام ، وسوف تكون مباركا لذلك فإنك لن تستطيع أن تقف ساكنا من التفكير فى الذات والإرادة الذاتية ، ولن تستطيع إيقاف عجلة الخيال والحواس وكلما كان العقل الواعى سلبيا فإن العقل المقدس الذى خلف الحجاب وهو عضو أو جهاز حياتنا الخلاقة المبدعة ـ سوف يبرز ويوافيك بما عنده وكذلك تقول كلمات أحد الصوفية القدماء « إن الروح عندما تترك كل شىء وتنسى نفسها فانها تنغمس فى محيط البهاء الالهى «Divine Splendowr » وتنيرها أعماق السمو للحكمة السامية التى لاتبارى .

إن « سلبية » التأمل إذن ضرورة أساسية وأولية للطاقة الروحية إن ذلك عمل ضرورى لتمهيد الأرض ونظافتها ، إنها تسحب قوى الادراك من شواطىء الشعور وتوقف عجلة الخيال » . وكما يقول اركهارت فإن الروح تخلق فى مكان بين الزمان والخلود فتلمس الخلود أو الأبدية بأعلى قوها ، وتلمس الزمان بأدنى قواها ». ان هـذين العالمـين عالـم الوجـود الكـائن « Being » وما سـيكون « Becoming » هما مرحلتى الحقيقة تتقابلان فى روح الإنسان ، إننا بالانفصال الزمنى عن الوجود الكائن ـ النوع الأدنى من الحقيقة فإن التأمل يعطينا النسيج الأبدى والطاقات التى تمكننا من الإتصال بذلك العالم ومصادقته . إن هذه القوى تولد لدى الصوفى وتقع قريبا جدا من محوز الإدراك الطبيعى إن لديه عبقرية علم الغيب أو المستور أو كما يقولون العلم الالهى (اللدنى) .

إن هذا الأمر يتم اكتشافه كما يتم عند أولاد عمومته الذين ولدوا كموسيقين أو شعراء فإن لديهم العبقرية الموسيقية أو الشعرية ، ففى كل تلك الحالات الثلاث إن ظهور قواهم أو قدراتهم الخارقة يعد أمرا غريبا وهى ليست أقل غرابة من ذلك للذين يمرون بالتجربة ذاتهم . والواقع أن علم النفس من ناحية وعلم اللاهـوت من ناحية أخرى يقدمان لنا رسوما أو نظريات علمية لما تقدم عن دورات غريبة لتذبذب الإدراك المتطور ، والزيارات للقوى الخلاقة التى تتم فى

نوبات وشطحات ليس للنفس عليها أدنى سيطرة لأن البهجة والحزن هبة تمنح وتمنع . ولكن سر العبقرية يظل يشدنا كما يشد سر الحياة عالم الأحياء .

إن أقصى مانستطيع قوله عن هؤلاء الأشخاص أن الحقيقة تظهر لهم فى ظل ظروف غير طبيعية وفى ظل شروط وقواعد غير طبيعية وأن من يتعرض لتلك الظروف والشروط أجدر به أن يتعامل معها .... إنه بفضل تكوينهم العقلى الغريب فإن مظهرا من مظاهر الكون يركز بالنسبة لهم بدرجة شديدة ، لدرجة أن الصور الأخرى أمامهم تظهر مهزوزة أو مطموسة وغامضة وغير حقيقية ومن ثم فإن تضحية أصحاب العبقريات من المتصوفة والفنانين والمخترعين بكل حياتهم مكرسة لهذا الهدف الواحد ، هذا المشهد الواحد لرؤية الحقيقة وليس ذلك انكارا للذات بل هو تحقيق للذات الكاملة . انهم يجمعون أنفسهم مما هو غير حقيقى لكى يركزوا على ماهو حقيقى فالشخصية كلها حينئذ تمتص أو تدخل فى وحدة مع ايقاعات معينة أو وجود متوافق فى الكون لايستطيع أن يدركه جهاز الإستقبال لدى الناس الآخرين .

وكما يصيح (آبت فوجلر Abt Vogler) هنا أصبح الله لمحة من الإرادة الإلهية « كلما نمت الأصوات تحت يديه » ، وكما يقول الشاعر أتت الأرقام - إنه لايدرى كيف أتت وبالتأكيد فليس ذلك عن تفكير عمدى .

وكذلك الحال مع المتصوفة (تقول مدام جايون « Madame Gayon (١) فى مذكراتها أنها عندما كانت تقوم بكتابة مؤلفاتها فانها كانت تمارس أو تجد ميلا شديدا لايقاوم للأمساك بالقلم على الرغم من كونها عاجزة تماما على التأليف الأدبى ولم تكن حتى تدرى الموضوع الذى سوف تكتب عنه . ولو قاومت هذا الإحساس فإنها كانت تقاس الكثير من عدم الراحة والقلق . وحينئذ عندما تبدأ فى الكتابة كانت تكتب بسرعة غير عادية ، تكتب كلمات وتطور أفكارا ومناقشات ، وتجد المقتبسات المناسبة للموضوع تأتى لرأسها دون تفكير وبدرجة

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن مدام « جيون » ليست من الصوفية ذوى الرتبة العالية ، كما يحتوى تاريخها على أحداث غير موفقة ، مع ذلك فهى تعرض بعض الظواهر الصوفية من خلال منظورها الضيق الذى تعتقد أنه مفيد للطالب المترجم .

S.N.D. of man's Spirtual Consciousness; P. 66 .

سريعة لدرجة أن أحد أطول كتبها قد كتبته في يوم واحد ونصف . « وتستطرد قائلة » عندما كنت أجدنى أكتب عن أشياء لم أرها فى حياتى أو خلال وقت هذه الكتابة تردد لقد منحنى الله نورا لأن أفهم ان لدى كنزا من المعرفة والفهم التى لم أكن أدرى أننى أملكها .

ومثل هذه العبارات قالتها القديسة تريزا التى أعلنت أنه عند كتابة كتبها كانت لاحول لها ولا قوة فى أن تقيم أو تعمل شيئا سوى الذى يضعه سيدها (الله) فى عقلها . وكذلك قال بلاك « Blake » القديس ، لقد كتبت هذه القصائد باملاء مباشر كل اثنى عشر أو ثلاثين سطرا أوبيتا معا دون إعداد وتأمل سابق ، وحتى أحيانا كان ذلك يتم رغما عن إرادتى . وهكذا فالوقت الذى أخذته كتابتها يعتبر غير موجود ولكن القصيدة الطويلة الضخمة تبدو كأنها عمل استغرق عمرا طويلا ولكنه أنتج دون عمل أو دراسة .

إن تلك أشكال لتلك القوى ... قوى التأليف الآلى التى تترتب فيها الأفكار والكلمات والشخصيات من تلقاء نفسها فى تحد واضح لمؤلفيها وإرادتهم ويوجد هذا الأثر لدى معظم الشعراء وكتاب القصة . إن مثل هذا التأليف ربما يكون متصلا بالكتابة الآلية للوسطاء والحواس الأخرى . إن العقل السامى لدى المتصوف العظيم ليس مضطربا رغم ذلك ولاغير مرتب أو منظم . إنه ملكة حساسة بطريقة غير طبيعية ، وموهوبة بسخاء ، ولديها حدة الملاحظة ، إنه منزل الكنوز وليس غرفة خاوية - ويصبح فى خلال تعليمه آلة منظمة جيدا وماهرة جدا للمعرفة ولذلك عندما تبرز محتوياته فإنها تُقدم للإدراك الواعى على شكل الهام أو وحى أورؤى أو كتابة آلية ، أو ترجمة أخرى لما هو فوق المحسوس فى ظل ظروف وشروط الفهم المحس . إنها لايمكن تجاهلها بسبب منطقة اللا وعى فى الطبائع الضعيفة التى قد تظهر بنفس الطريقة . إن البلهاء أحيانا يكونوا حكماء ولكن كثيرا من البُلغاء عقلاء .

والآن لكى نعرف ماهى الخصائص الرئيسية التى وصلنا اليها والتى تهمنا فى رسم خريطة أوصورة الحياة الفعلية للإنسان فإننا نعددها على النحو التالى .

(١) لقد قسمنا تلك الحياة ، بتفريعات كافية على طول فى ذلك الخط المتأرجح الوهمى الذى يسميه علماء النفس « عتبة الوعى » ويقع مابين الحياة

السطحية (الخارجية) وأعماق اللاوعى .

(٢) فى الحياة الخارجية حددنا ثلاث مظاهر بارزة ودائمة الحضور وهى التليث أو ثلاية وحدة الشعور والفكو والإرادة « Trinity in Unity of Feeling , thought and will » ، ومن بين هذه القوى إضطررنا إلى اعطاء الأولوية للشعور لأنه القوة الآلية للفكر والإرادة لكى تعمل .

(٣) لقد رأينا أن التعبير عن تلك الحياة يأخذ شكلين متكاملين لـ « Conation » (النبض الطبيعى والنشاط الغريزى لعمل شىء من الأشياء) . والعمل الخارجى والمنعرفة الجوانية « Indwelling Knowledge » أو مايسمى بـ « Cognition » وأن الشق الأول يعد نوع متحرك ويعود أساسا إلى الارادة التى تحركها العواطف ، بينما الشق الثانى والذى هو سلبى النشاط فهو عمل العقل أو الذكاء أو الفهم . إنهما يعودان إلى المظهرين الرئيسين اللذين يمارسهما الإنسان فى الكون ـ الوجود الموجود والوجود الذى سيوجد « Becoming » (الكائن والمستقبل) .

(إن كلا من العمل والفكر لايؤديهما ذلك العقل الظاهر لأنه مهتم بالوجود الطبيعى كعادته .تسيطر عليه مفاهيم معينة ولكنه قادر على اقامة علاقات مع المطلق « Absolute » أو عالم الغيبيات « Transcendental world » إن مثل هذا العمل والفكر يتعاملان كلية مع المادة التى تصلة بطريق مباشر أو غير مباشر من عالم المحسوسات .

إن كتاب المتصوفة وتاريخهم رغم ذلك ، وكل الأشخاص الذين يملكون غريزة الوصول إلى المطلق أو الكمال يشير إلى وجود ملكة أخرى حقا فى الإنسان وهى « النفس الأعمق » وهى التى تخفيها ظروف الحياة الوقتية تحت العتبة أو فى الظل كما يقولون تحت عتبة الوعى والإدراك والتى تصبح عاملا من عوامل النفس السامية للمتصوف . إن النفس الخفية هى الجندى الأول أو العامل الأول للتصوف والتى تحيا حياة أساسية على إتصال بعالم الغيبيات [١] .

---

(١) هذه الإصرار على إزدواج الشخصية الإنسانية للمتصوف هو الأساس الذى يبنى عليه علم النفس الصوفى ، وهو الذى يميز بين نوعين من النفوس (النفس السطحية . Aminus والنفس العميقة – Amina ـ والأولى تختص بالمعرفة العقلية والثانية بالمعرفة الصوفية والشعرية . المترجم

(٥) إن عمليات معينة ــ والتأمل مثال لها ـ يمكن أن تغير حالة الإدراك لكى تسمح ببروز وظهور النفس الأعمق والتى تجعل الإنسان طبقا لدرجة أكثر أو أقل تصوفا .

ولذلك فإن حياة التصوف تشمل بروز المستويات العميقة فى نفس الإنسان الغيبية . وسلبها واستيلاتها على مجال الشعور أو الوعى أو الإدراك . ثم عملية التحويل واعادة الترتيب للشعور والفكر والإرادة والشخصية حول هذا المحور الجديد للحياة .

إننا نقول فى ختام هذا الفصل أن الهدف من مغامرات المتصوف التى يراها من الداخل هو الفهم والاتصال المباشر والاتحاد مع الحقيقة السامية الغيبية التى حاولنا شرحها خلال الجزء الأخير من هذا الفصل . وهناكما فى تمام وقمة الحب الدنيوى (الأرضى) فإن المعرفة والاتحاد هما نفس الشىء قمة وكمال . « اننا لابد وأن نتحد مع القدس اذا أردنا معرفته . إن هذا هو غذاء الروح كما يقول « رويز بروك » إن غذاء الروح يقع تحت عتبة الوعى والإدراك ولكن فى بعض الطبائع الغير العادية فى ثرائها وحيويتها وعبقريتها فانها تحرر بمختلف الأجهزة فى ظل ظروف مواتية مثل التأمل . وعندما تبرز أو تظهر للوجود فانها رغم ذلك تساعد فى العمل فى مظاهر الوعى نفسه . ان السطح أو المظهر لابد وأن يتعارض مع الأعماق أو مع الجوهر وأخيرا يختلط بهذه الأعماق لكى ينتج عنه توحيد للادراك على مستويات عليا يمكن أن تضع أساسا لقلق الإنسان . إن القلب الذى يشتاق الى الكل « All » والعقل الذى يفهمه والإرادة التى تركز كل ذاتها عليه لابد أن يتركوا لكى يقوم كل بدوره . لابد للنفس أن تكون مستسلمة ولكنها لايجب أن تتحلل كما افترض بعض من يسمون (بأصحاب مذهب الهدؤ) إن النفس تموت لكى تحيا مرة أخرى ـ انه النجاح المنقطع النظير الباهر ـ والتأكيد المستمر للمتصوف الذى يقول (اننا فى السماء الواقع أكثر منا فى الأرض) .

وتقول الليدى جوليان فى قطعة تصنف فيها علم النفس الحديث « انه ينبع

S . N. D. of man's spirtual Consciousness; P.67 .

من الحب الطبيعى لروحنا ومن النور الواضح للعقل « Reason » والعقل الرصين .

ولكن ماهو ترتيب الأسبقية التى تأخذه هذه الأنشطة الثلاث فى العمل الذى فى جوهره هو عمل واحد ؟ إن الجميع كما رأينا لابد وأن يؤدى دوره لأننا نحرص على استجابة الإنسان فى كليته للجاذبية الغامرة لله سبحانه وتعالى ولكن ياترى أى منها سبقت له السيطرة ؟ ان الطبيعة المطلقة لتجارب النفس للحقيقة سوف تعتمد على الإجابة التى تعطيها لهذا السؤال . ماهى القيم المتصلة هنا بالعقل والقلب ؟ ما الذى سوف يجعلها أقرب إلى فكرة الله : هل هى الحياة الواقعية التى تعيشها ؟ وما هو الشىء القوى المسيطر الذى يجعلها من المحتمل أن تكون فى توافق أو وفاق مع المطلق « Absolute » ؟ حب الله الذى يملأ قلوب القديسين ودائما على شفاهم أم الرغبة العارمة الجارفة لهذا التوافق . والمساوى لهذا هو مرض العقل أو سقم الفكر « Malady of Thought » ذلك هو البديل أو المساوى الذهنى . وعلى الرغم من أننا نبدو وكأننا نهرب من الله فاننا رغم ذلك لا نستطيع الخلاص من بعض خلقه ورسومه إلا فى حالة الركود المطلق . ولذا فإننا نعود إلى العبارة التى إفتتحنا بها هذا الفصل أن كلا الرغبتين المسيطرتين تشارك سجن النفس ، إننا نراها الآن آمال الفكر والعواطف التى تعد الغاية الوحيدة لكل مطالبنا ، ان الطاقة الغريزية « Conative Power » مع كل الملكات الخاملة التى يمكن أن توقظها وتستعملها وتوظفها يمكن أن تهب لمساعدة واحدة منها ترى أيهما ؟ إن هذا لسؤال محرج وصعب لأن مصير النفس يعتمد أولا وأخيرا على الشريك الذى تختاره الإرادة .

الفصل الثانى

التأمل والاتصال بالمطلق

(١) التأمل والرياضيات الروحية

والآن يجب أن نضع فى الإعتبار أن الحالات المتطورة من العزلة الذاتية تخضع للتصور العام للتأمل ، وهى حالات يكتسبها الانسان كنتيجة وهبية لنظام الصمت والذكر الصوفى .

ولو أن هذا المنهج من الرياضيات الروحية أثمر ثماره ، فإنه يظهر على السطح شكلا من أشكال الوعى الذى يصبح صالحا للحياة وهو الوعى الذى يشكل وسيطا للاتصال بالحقيقة « Reality » .

وهذا الوعى هو الذى يبقى غير متطور فى حالات الوعى العام أو لدى البشر العاديين .

وبفضل الملكات الروحية التى تنغلق تماما عن العالم الحسى وتنفتح على العالم الالهى حيث لا أثر لأى مشاهدات حسية فان حريتنا الشخصية أو ارادتنا تلتقى والارادة الالهية .

ثم أن هناك مستويات من التدريب على الذكر « Recollection » تصل بالروح الى التدريب على الانتباه الروحى ، وفى نفس الوقت ترفعها الى مستوى جديدة من الإدراك والفهم حيث يمكن بواسطة الرمز الذى يشكل مركز تجميع قواها أن تتلقى فيضا جديدا من الحياة .

وعند مستويات من الهدوء تتعدى الروح الى حالة من الصمت الشديد حيث تبقى فى الحقيقة التى لا تجرؤ على النظر اليها . وفى هذه الحالة من التأمل نعبر الى مراحل أعمق من الصمت والرمزية ، وكذلك ننشط بحماس شديد فى هذه المستويات العليا التى تعد مغلقة ومظلمة بالنسبة للعقل واضحة مشرقة بالنسبة للقلب . هنا يجب أن نتوقع أن يفصح هذا النشاط التأملى contemplative

activity عن نفسه بطرق كثيرة مختلفة وتحت أسماء عديدة طالما أن هذه الحالة تخضع للظروف الشخصية ـ وهى تظهر تحت اسم الحالة العادية ، أو الحالة الشاذة كما يسميها كتاب الزهد أو تحت اسم التأمل الايجابى infusedc ، أو التأمل السلبى Passivec كا هو فى حالة (orison of union) صلاة الاتحاد .

وأحيانا تفصح عن نفسها فى مثل هذه الحالات السيكوفزيقية والتى فيها يكون التركيز الشديد على حالات من الادراك السامى والذى ينتج عنه ضيق مجال الشعور العادى وانحساره عن كل المعارف الخاصة بالعالم الظاهرى ويتم عندها تجاهل كل الرسائل الآتية من الحواس Senses .

ويبدو الموضوع أنه يتم فى حالة من حالات الصلابة الفيزيقية وفى حالة غيبة كاملة أو ناقصة ، وهذه هى حالات الغيبة والنشوة Rapture التى تبدو فيها على المتصوف أعراض مرضية مشابهة للأعراض المرضية للهستيريا مما يساعد على تأكيد وجهة نظر أعداء الصوفية الذين يتهمونهم بالمرض النفسى . إن حالات الجذب أو النشوة تختلف عن التأمل العادى باعتبارها حالات لاارادية ـ تقول « القديسة تريزا » أن هذه الحالات حالات عصية علي المقاومة تماما irresistible ، بينما فى حالة مايسمى اتحاد العبادة التى يظهر فيها نوع من التأمل الصافى الخالص عند أعلى مستوى له من التطور فانه يظل محكوما لارادة الموضوع الذى قد لايقاوم بالألم والعنف . ثم أن هناك فارقا واضحا سواء كان طبيعيا ، أو جسديا بين حالات التأمل والنشوة ، أو الجذب ولسوف نحاول أن نشغل أنفسنا باختبار الشخصية فى هذه الحالات .

أولا : فيما يتعلق بالتأمل المناسب :

ماذا يكون ؟ انه نوع من الفيض السامى لقوة غير مرئية من قوى العرفان تلك القوى التى تكمن فى جذور رضانا الفنى والروحى ، وفى هذا المجال فان الانسان يقيم ثلاثية (Trinity) من الفكر والحب والارادة ، ثلاثة فى واحد . كما قدمنا . وكذلك يوحد بين الاحساس والادراك لأنها كلها قوى جمالية وهى أفضل وسائل اتصالنا بالحياة . انه ليس عملا من أعمال العقل وانما عمل من أعمال الشخصية ككل تلك الشخصية التى تعمل تحت نوع من استشعار الحب الصوفى (Mystic love) . ومن ثم فان هذا يغذى كل ناحية من نواحى الشخصية ويشبع

غريزتها للخير والجمال والحقيقة . ومن الناحية السيكولوجية فان حالة التأمل التى يعمل فيها حقل الوعى مرتبطة بدرجة كبيرة بالنفس وقواها العرفانية التى تركز بشدة على شيىء واحد أو على نقطة واحدة .

نحن ندفع أنفسنا الى الخارج وهو مايبدو لنا أنه فى اتجاه القوى العليا (السامية) وهو مايبدو اتصالا بها وتعلقا أو إمتزاجا معها .

ومهما يكن هذا الشىء ومهما تكن المعرفة به فنحن لانستطيع أن نعرفه بالأجهزة العادية للفكر .

ان انقلاب انتباهنا من العالم الطبيعى عالم الكثرة (Multiplicity) إلى عالم الوحدة يوضح لنا بأى نوع من الذكاء نستطيع أن نتعامل فى هذا المجال وهو مايحكم قوى جديدة من قوى الادراك لم نعرفها ، ولم نكن نعرف أننا نمتلكها من قبل .

ثانيا: لحظة التأمل :

إن لحظة التأمل هى من لحظات الاتصال بالحقيقة السامية ولحظات التأمل لاتدوم فهى لحظات خاطفة أشبه ماتكون (بالوميض الخاطف الذى يتمثل فى رؤيا الشعراء وحدس الفلاسفة الذى يعطينا فكرة عن الوصول إلى المطلق .

ان أعظم حالات التأمل ليس لها القدرة على إحتمال وميض الرؤيا الرهيبة لأكثر من لحظة خاطفة ،إنها ومضة خاطفة أو لحظة عابرة ، إنها كما يقول القديس « أو غسطين » لحظة يتعلق فيها العقل بتأمل لمحة خاطفة من الحقيقة الواحدة - إنها تتم بانسحاب الفكر من عالم الواقع وابتعاده بنفسه عن التناقض الذى توقعه فيه الصور الحسية حيث يمكن أن يدرك معنى ذلك النور الذى كان يستحم فيه ، وهكذا وبومضة النظره الخاطفة يمكن الوصول إلى رؤية ماهو كائن ، ثم يمكن رؤية الأشياء الغير مرئية ، وفهمها بواسطة الأشياء المصطنعة وعلى حد تعبير القديس أوغسطين) « لكنى بعد ذلك لا أطيق إحتمال تأملى وأعود إلى ضعفى ثم أرد إلى تجربتى وخبرتى العادية حاملا معى مجرد ذكرى حبيبة جدا » كما لو كانت عبير اللقاءات المرغوبة التى كنت فيها غير قادر على تغذيتها .

إن هذا العبير كما يقول القديس أوغسطين يستمر إلى الأبد مع هؤلاء الذين تلقوه حتى ولو كان للحظة واحدة فى جو الحقيقة[1] .

وهكذا فإن هذه الذكرى الخالدة التى لاتوصف لاتصالهم بالحقيقة تعطى عملهم عطر الوردة الذى لايضارع والذى يعد سر سحر الوجود .

إلا أنهم لايمكنهم أن يخبرونا فى لغة بشرية دقيقة مالذى أمكنهم الحصول عليه فى رحلات الجذب تجاه فكرة الالوهية أو فى هذه اللحظة المؤقتة التى يتم فيها الاندماج فى الحياة المطلقة mergence in the Absolute life

وهذا مايعبر عنه القديس « أوغسطين » بقوله - إنه « الواحد » أو هو سمو الحياة الحقيقية أو كما يقول أفلوطين إنه الكلمة الفعالة ، أو كما يقول القديس « برنارد » - النور الخالد ، أو كما يقول « دانتى » إنه الهاوية أو كما يقول « رويزبروك » الحب النقى ، أو كما تقول القديسة « كاترين » إنها عند أفضل حد رموز متواضعة للكمال . ولكن الذى تؤكد عليه مشاهدات هذه الحالة عندهم هو أن الموضوع الذى يحظى السالك باكتشافه واحد .

ومن الخواص التى يحددها وليم جيمز William James لهذه اللحظة عقلية لا تقبل الوصف وهذا يشكل خواص دائمة تميز الخبرة التأملية . (للمزيد من التفاصيل عن هذه اللحظة يراجع كتاب وليم جيمز (The varieties of Religious Experience) إن هؤلاء الذين شاهدوا مقتنعون بما شاهدوا كما أنهم لايمكنهم أن يتفوهوا بشىء عما شاهدوه . والذين لم يشاهدوا لايمكن أن يخبروا عن شيء لم يشاهدوه إنه ليس هناك يقين يرقى إلى مستوى يقين المتصوفة كما أنه ليس هناك عجز أوضعف أكمل من ذلك الذى يقع فيه هؤلاء الذين يحاولون الوصول الى الحقيقة . (وأما عن أفضل الأعمال المقدسة وأرقاها بالنسبة للروح عندما يتجلى الله على النفس فإننا لايمكن أن نتحدث عنها بكلام معقول كما تقول انجلا

---

(١) لحظة الاتصال بالحقيقة عند المسلمين هى من اللحظات الخاطفة التى لاتدوم . إذ لو دامت لعطلت عمل الحواس ولأحدثت سكراً شديداً مدمراً لسلطان العقل ، والأصح أن يعود السالك من فنائه ليرد الى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه - راجع أبو حامد الغزالى ، مشكاة الأنوار القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥٧ .

Angela ومع ذلك فإن الجزء الأعظم من الأدب الصوفى يعنى بالمحاولات التى يبذلها المتصوفة بمشاركتهم فى اكتشافاتهم . كذلك فإنه تحت العديد من الصور وباستغلال مقصود لبعض التناقضات فإن ، هؤلاء الذين يعانون قوة الحدس يحاولون أن يخبروا الآخرين بطريقة ما عن ذلك المكان أو تلك المنطقة التى لم تشاهدها العين مطلقا . ويعزى نجاحهم جزئيا الى تلك الملكة التى تكمن فيهم أو ذلك الوميض (نقطة رفيعة من الروح) فتعرف ذلك المكان حيث ولدت وحيث تشارك فى « القدرة المطلقة » ويمكنها تحت ظروف معينة أن تلتصق بالوعى . ثم ذلك الإحساس السامى الذى يستيقظ من أحضان نومها وتعترف أن هؤلاء المستكشفين للمطلق قد شاهدوا أو تأملوا الأسرار الكونية .

وهناك فرق بين التأمل والتعقل تلك الحالة البسيطة الواحدة التى يحكمها جهاز واحد وتخضع لظروف فيزيقية . إنه الإسم العام لمجموعة كبيرة من الحالات التى يمكن التحكم فيها جزئيا ـ وكأى شكل من أشكال النشاط الصوفى الأخرى تكون خاضعة لظروف الموضوع وحالات المشاعر المصاحبة التى تختلف من مجرى الهدوء والسكينة إلى حيث الحب النشط الذى تنشغل به بعض أنواع التأمل والتى تصاحب ظواهر الرؤيا العقلية والأصوات الباطنة . وفى آخرين نجد مايبدو تطورا للهدوء أو السكينة : وهى حالة يصفها المتأمل كنوع من التلاشى أو الظلام أو التأمل .

وقد يخبرنا المتأمل أحيانا أنه يمر من خلال الظلام إلى النور كما أنه يخيل إليه أحيانا أنه يظل إلى الأبد فى ذلك الظلام المفيد . وفى بعض الحالات تقول الروح إنه فى اعماق ذلك التلاشى فإنها تعرف قيمتها ، وفى حالات أخرى تصبح واعيه بالوقت الذى ينتهى عنده التأمل عندما يحاول الذكاء الظاهرى أن يعيد سيطرته على الإنسان ثانية وفى هذا الخليط من الخبرات الشخصية يصبح ضروريا أن توجد بعض الأسس للتصنيف والأحكام التى بها تميز بين التأمل الصحيح وحالات الإنطواء ومثل هذه الأسس ليس من السهل وجودها ومع ذلك أنا أعتقد أن هناك علامتين مميزتين للحالات الحقيقية من التأمل .

---

(١) The varieties of Religious Experience, P. 373 .

١ ـ كلية الموضوع الموضوع ٢ ـ إندماج النفس فى الموضوع .

وهاتين الخاصيتين هما مايمكن استخدامهما بأمان فى محاولاتنا فى تحديد نوعية التأمل ومهما يكن المصطلح الذى يستخدمه المتصوف لوصف التأمل ، ومهما يكن ضعف واضطراب فهمة فإن خبرة الصوفى فى التأمل هى خبرة الكل ـ وتجربة كلية ـ وهذه التجربة تبدو له أنها هبة أو عطاء أكثر من كونها كسبا له .

وفى هذه الخبرة يكشف المطلق عن نفسه لهم ـ ليس كما فى الرؤى أو التأمل الذى تنكشف فيه بعض الأمور الجزئية . ثم أن هذه الحقيقة المنكشفة يتم التعرف عليها عن طريق المشاركة وليس عن طريق الملاحظة . إن الإستقبال السلبى للسكينة يكون متطورا هنا إلى نوع من العطاء النفسى الذى يعد استجابة نفسية للتعاليم الالهية . وبوسطة العمل الحر المستقل لجهد الإنسان تصبح الألوهية منفتحة علي الروح وتندفع الروح تجاه الألوهية لتتلاشى فيها وهكذا فإن الأخذ والعطاء طبيعة الهيه وكما تعطى تأخذ وهى حالة قائمة بين الحياة المحدودة والحياة المطلقة .

إن هذا الوعى المخيف « بالآن » الذى يعوق بحثنا عن الحرية والحياة الكاملة يختفى . وتتحق الحياة الروحية على الأقل ولو اللحظة واحدة . ويذوب المتأمل فيها كما يتلاشى الطير فى الهواء أو السمك فى البحر (إنه يفتقد ليجد ويموت ليحيا أو كما يقول (Dionysius) الخروج كلية عن النفس التى تعطى لله ، وهذا هو الاتحاد السلبى للتأمل وهو حالة مؤقتة يتلقى فيها الشخص إحساسا بسعادة لاتوصف لأنه يصل إلى الحقيقة المطلقة . وقد يحاول الشخص هذا الإعتقاد إلى شيء يقال أو الى شيء يرى ولكنه يجبر فى النهاية أن يعترف إنه لايقول شيء ذات معنى فيما عدا بعض الأشياء الضعيفة ، أن الحقيقة الجوهرية أنه كان هناك كحقيقةجوهرية لأن إغترابه لم يكن عن المنظر أو اللغة ولكن عن معايشة روح المكان .

وكما قال أفلوطين Plotinus فى أحد أفضل عباراته لكى تحظى بهذه المشاهدات والرؤى فإنه شىء لاينال عن طريق العقل لأنها أمور تتعدى التعقل وتسبقه ، وتأتى بعده ، وهكذا أيضا تكون الرؤى المشاهده التى ترى وربما لايج...

أن تكون هنا لنتحدث عن المشهد . لأن هذا الذى يشاهد لايمكن أن يدرك بواسطه العارف ـ ولو كان هذا حقيقيا فمن الممكن هنا أن نميز بين العارف والمعروف كأشياء منفصلة .

ولهذا السبب فإنه من الصعب التحدث عن هذه الرؤية ـ لأنه ليس ممكنا لإنسان أن يصف ماشهده الآخر ،[1] ولا هو أقدر منه على هذا الوصف خصوصا وأن العارف عندما يعرف موضوع رؤياه ومشاهداته إنما يعرفها ويدركها كشيء واحد مع ذاته .

أما ريسبروك Ruysbroeck الذى واصل كتاباته فى العصور الوسطى عن الأفلاطونية المحدثة Neoplatonic فهو يصف حالة من البصيرة السامية Supreme insight (رؤية الحقيقة) المتعلقة بشدة بموضوع النشوة أو الجذب الأفلاطونى ـ فيرى « التأمل » هو الذى يضعنا في حالة من التقاء والتسامى بعيدا عن طريق المعرفة أو الذكاء أو التدريبات مهما كان نوعها ولكنها خاصة بمن يصطفيهم الله ويختارهم ليتحدوا معه ويمنحهم لحظة التنوير بذاته ، وهذا النوع من البشر وليس غيره هو القادر على تأمل الله .. ولكن القليل جداهم الذين يحظون بهذا التأمل بسبب صفاء هذا النور وغموضه وعدم القدرة على تحمله ـ وهذا هو السبب فى أن أحدا لايمكنه أن يفهم هذه الأشياء عن طريق العقل أو المعرفة إذ أن جميع الكلمات وكل مايتعلمه الانسان أو يفهمه من هذه الحياة بعيدا تماما عن « الحقيقة » لكن الذى يتحد بالحقيقة هو الذى يعرف الحق بالحق .

هذه المعرفة بالحقيقة كامنه فى قاع كل نفس تحرك رغبة الانسان فى معرفة الحق التى لاتنال إلا بالحق . فالقديس يتعطش لمعرفة الله ، والفيلسوف يرغب فى الاتجاه إلى المطلق ـ وهذه ليست أكثر من رغبة قوية فى إشباع الحاجات الملحة للروح التى يتم التعبير عنها بطرق مختلفة (عن طريق العقل وعن طريق القلب) . إن مايحاول العلم أن يثبته ويحققه وكذلك مايحاول الميتافيزيقيون أن

---

(1) The varieties of Religious Experience , P.381 .

وهنا اشارة إلى ضرورة استخدام منهج الاستبطان النفسى كى يصف الصوفى مايحظى به من مشاهدات مع ذلك فهو لا يتمكن من نقلها أو وصفها للآخرين .

برسمه ، وما يحصل عليه الفنانون عن طريق الحدس intuition يتجه نحو هذه الحقية ـ وهذا هو السبب الذى يدعونا للقول أن آدم قد إرتكب الخطيئة الأولى عندما إبتعد عن التأمل ومنذ ذلك الحين هناك إنقسام أو ازدواجية فى الإنسان ويبدو الأمر على نحو مايقول هلتون Hilton « إن النفس البشرية تحس جيدا » أن هناك شيئا فوق مستواها . شيء لاتعرفه ولم تعرفه بعد وهى تحترق شوقا إلى معرفته ـ وهذه المعرفة هى أشبه بما شاهده النبى Ezechiel فى رؤياه عن مدينه القدس ـ وهى مدينة شاهدها فى شكل طريق ضيق لايتعدى طوله ، وعرضه أذرعا قليلة ، لكن بمجرد أن وصل إلى المدينة أدهشه ماشاهد من كبر حجمها ، حيث رأى صالات وغرف مفتوحة ومغلقه وشرفات وبوابات بداخلها الكثير من الأبنية الكبيرة .

وقد تعجب من نفسه كيف أتيح له أن يرى هذه المدينة من داخلها صغيرة فى رؤياه كبيرة فى الواقع ـ

إن هذه الرؤيا تمثل فى حقيقتها حالة الحب الكامل لله ـ ذلك الحب الكامن فى باطن الروح والذى يحدث أثره بالتأمل .

وكما في حالة الرؤية فإننا نحن الذين نتخلى عن الحس والرغبة كما يمكننا أن نعرف حقا كل مايتعلق بالتأمل وكل قيمته فيما يخص الحياة ، وتلك المعرفة التى يحققها ، ويضفيها علي هؤلاء الذين جاءوا بداخل المدينة ـ وهو مايمثل فى اللغة الفنية الاستعارية عند أفلوطين « التحليق فى اتجاه فكرة الأولوهية [1].

ومايمكن لهم أن يخبرونا به عن معرفتهم بالحقيقة إنما قد تأتي لهم حقا فى هذا الاتصال الخاطف بالمطلق .

وعندما نطلب منهم الدليل على مشاهداتهم فإنهم يخبرونا بأشياء متناقضة ـ إنهم يتحدثون دائما بنفس الطريقة من الفرحة الغامرة عن رؤيا جميلة ، عن اتصال شديد ، عن مشهد محبوب ، عن فراغ هائل ، عن صحراء قاحلة ، عن

---

(١) تتحدث « أندرهل » هنا عن كيفية تلقى مشاهدات وفيوضات ربانية يتلقاها الصوفى الغارق فى التأمل فى شكل مصغر ولكن دقيق ورائع ويصف الحقيقة فى لمحة نورانية خاطفة . وبرموز متعددة يفهمها السالك المتأمل . المترجم .

هوة سحيقة ، عن ظلام مقدس .

وغالبا ماتتكرر أزواج من المتناقضات عند وصفهم لحالات التأمل النقى . كالبعد والقرب ، والظلام والنور . على أنه يجب أن نضع فى الإعتبار أن هذه الاستعارات الأربعة تصف نفس العملية التى تشاهد خلال حالة من الحساسية temperament ـ وهى تمثل رد الفعل الناتج عن هذا الإحساس بالحقيقة المطلقة وربما يمكننا من خلال مقارنتهم أن تحصل على فكرة ولو بسيطة عن مجمل الخبرة الغير قابلة للوصف .

لاحظ أن العوامل العاطفية المصاحبة للإدراك سوف تكون دائما وبالضرورة عصية على اللغة التى يستخدمها الصوفى حينما يحاول أن يصف لنا خبرته بالأشياء السامية

ولسوف يتجه وصفه دائما ناحية الانطباعات الشخصية أكثر من إتجاهه إلى الناحية العلمية ، وسيكون « الظلام المتوهج[1] والهوة السحيقة ، وسحابة المجهول ، واحتضان المحبوب » وكل هذا لايمثل المتسامى ولكن علاقته مع المتسامى وهو موضوع لايخضع للملاحظة ، وإنما هو عبارة عن إنطباع حسى مؤثر وقوى ، ويغلب عليه طابع الكلية التى يستشعرها أثناء اتصاله بالحقيقة المطلقة التى هى « الواحد » .

إذن فليس من العدل أن ننظر إلى التأمل من هذه الناحة على أنه حالة من الاحساس السابق على الظهور أو الكامن ومن ثم فهو يسهم فى الإحساس وكما يعتقد الكثير من الكتاب المحدثين ـ فإن التأمل شيء ذو صدق موضوعى ولكنه بالطبع مصحوب بنوع آخر من الإحساس السامى يحتل العواطف الانسانية السامية . ولأن مثل هذه العواطف تمثل الحد الأدنى من الجزء الغير سوى فيه ـ فإن هذا الجزء يكون سهلا من حيث الوصف على اعتبار أنه يتكون من خليط من العواطف كالخوف ، والدهشة ، والرغبة والفرح ، وهى العواطف الشائعة فى مثل هذا الإحساس وهى نفس المشاعر التى تتطور معه خلال الأحداث الحسية

---

(١) هذه هى الرموز التى تستخدمها الكاتبة نقلا عن الرهبان والمتصوفة وتعبر بها عن حالة الاتصال بالحقيقة .

اليومية .

إن لغة المتصوف الغارق فى التأمل لابد وأن تحوى كلمات قادرة على نقل هذه المشاعر للأخرين ـ لكن خبرته الكلية مما يتعدى مجرد الاحساس إنها عمل كامل من أعمال النور « الغير قابل للوصف »[1] أو التعبير عنه بالكلمات العادية ، وبدلا من ذلك فإن مايعبر عنها هو الانسان ككل ـ أو الشخصية الغير مرئية التى يمكن الإشارة إلى قواها وطبيعتها بمثل هذه الكلمات (الحب ، الفكر ، الإرادة) .

إن مستوى الوعى الموضوعى الذى يعيه المتصوف الى حد ما فى حالات التأمل ليس شائعا بالنسبة للشخصية أو مألوفا لها ، كما أنه ليس متعلقا بنظام الفكر .

ولقد اعتاد الانسان أن يمزج بين صور مكانية يكيفها للحياة اليومية التى لا تملك لغة تناسبها ـ فمثلا عندما يسمع الانسان لأول مرة تحفة موسيقية كلاسيكية ـ فإنه لن يجد لغة يمكن أن توصف بها بطريقة موضوعية ولكنه فقط يمكنه أن يخبرنا كيف أنها جعلته يشعر أو كيف صنعت إحساسة .

وهذا هو أحد الأسباب التى تبدو سائدة فى كل وصف لنشاط يقوم به المتصوف .

إن العواطف الأرضية هى التى تؤلف توازيا يمكن الموضوعات الفائقة أن تفصح لنا عن شيء ما مما تتضمنه أو تستشعره نفس السالك المتأمل . لكنه لايتمكن من أن يصف لنا حاجته إلى مستويات من المقارنة ـ هذا الكل الآخر الذى أقنعه وأغرقه بهذا الشعور .

---

(١) أفاض وليم جيمز فى الحديث عن مثل هذه الحالات الغير قابلة للوصف فى كتابه The varieties of Religions Experience فى الفصل الذى خصصه للحديث عن التصوف فوصف حالات الاحساس الغيبى بالحقيقة السامية بأنها خبرات غير قابلة للوصف لأنها مصاحبة لفقدان الاحساس بالذات ولو لفترة قصيرة .
راجع الكتاب المشار اليه سابقا فى الفصل المخصص لهذه الدراسة بعنوان Mysticism ; P.379.

إن أفضل جهود المتصوف هى من أجل أن يجعل الكلمات مناسبة لهذه التجربة الخيرة والموضوعية وغالبا ماتتمخض عن تبخر هذه المحاولا كما يتبخر عبير هذه التجربة وحقيقتها[1] .

وقد يمكن التعبير عن هذه الحالة بما يقوله القديس أوغسطين « إننى أعرف معنى الزمان وأفهمه إلى أن يوجه إلىّ سؤال لتعريفة ـ هنا يصبح الأمر صعبا »

وهنا ندرك إلى أى مدى كم يكون الأمر رمزيا وحساسا عند محاولة وصف النشاط الصوفى . وقد يمكن اداركه بواسطة ذلك الشكل من التأمل الموجود فى الروح الموسيقية العاشقة عند ريتشارد رول Richard Roll والتى بها يجد أقرب الطرق الموصلة للحقيقة أو الموازية لها ليس فيما يعرف بالإتحاد التام - أو فقدان الذات فى غيب المطلق - ولكن فيما يعرف بفكرة مشاركة

التناغم السماوى ـ تلك العذوبة الشاعرية فى الإحساس بالله ، ذلك الاحساس الذى يمكن أن يحظى به السالك المتأمل فى فكره نابعة من أغنيه منه وإليه تعود .

يقول ريتشارد رول « إن التأمل هو أغنية مرحة فى الحب الالهى تأخذ فى الاعتبار حلاوة مدح الملائكة . وهذا هو الابتهاج الذى يعد الغاية من أى عبادة صارمة ودقيقة ومن أى تضحية فى هذه الحياة .

إن التأمل أغنية جميلة وضعت فى العقل واستمر طيفها خالداً بخلود المحب بصوت عظيم متفجر.

إن العذوبة التأملية لايتم الحصول عليها بجهود شاق وعظيم ، وهى تمتلك بفرحة لايتم الافصاح عنها . ولهذا فإنها ليست ميزه من ميزات الانسان ولكنها هبة الله ، ومع هذا لايمكن للإنسان أن يكف تأمله للحب الخالد إن تخلى عن عبث

---

(١) يتحدث ولتر ستيس W. Stace عن طريقة التعبير عن الخبرات الصوفية السامية بطريقة رمزية فى الفصل االذى خصصه للحديث عن الرمزية فى التعبير . فى كتاب ;Mysticism and philosophy الذى يقرر فيه أن عجز اللغة عن التعبير وتناقضها راجع إلى الاختلاف الوظيفى لنوعين من الوجدان (وجدان صوفى خاص ، ووجدان عام »
W.stace; Mysticism and philosophy , London ; 1961 ; P. 250.

الدنيا وهجرها .

وعلينا إذن أن نكون قد أعددنا أنفسنا لقبول ، وإختيار ، واستعمال ، أوصاف كثيرة ومختلفة فى وصف تلك العاطفة المثاره فى مجرى بحثنا فى طبيعة التصورات التأملية عن المطل .

ولقد وجدنا بالتحليل أن هذه العواطف المثارة تفصل نفسها بسهولة فى مجموعتين .

وتجيب هاتين المجموعتين عن إتجاهين يمتد إليهما الوعى الصوفى بالحقيقة ، وإلى طريقتى الوصف للألوهية والتى وجدناها من خصائص الأدب الصوفى - إن هذا التحيز الشخصى واللاعقلاى المتسامى (نقصد الخارج على حدود الادراك العقلى) لهذه الحياة هو مصدرها الغير مشروط ويرى فى هاتين الخاصتين .

(أ) الهاوية الغيبية السحيقة المظلمه والغريبه والتى يختص بها الوجود المطلق Pure being وهى تلك التى يعرفها هؤلاء الصوفية من ذوى الاتجاه الميتافزيقى .

(ب) القداسة والروحانية المصاحبة للحب والتى يكون وجودها محسوسا بعمق وشده بواسطة هذه الأنفس التى تميل إلى تصور وفهم الشخصية المقدسة ويبدو هذا فيما يلى .

(أ) : تأمل السمو .

The Contemplation of Transcendence .

إن أول مجموعة من حالات الشعور والتى تتحالف مع هؤلاء الذين يؤكدون أن الفكرة الدينية للسمو المقدس تولد من خلال إحساس المتصوف بصغر حجمه وتضاؤل قيمته وجهله الدائم فيما يتعلق بالعظمة الفائقة للألوهية المطلقة التى يدركها والتى يرغب فى أن يفقد ذاته فيها وكذلك هذا الاختلاف البين بين المقدس وكل شيىء آخر عداه . إن الخشية Awe ، والاحساس بحقاره النفس Self abasement ، والتناقض العاطفى المتعلق بفقدان الذات فى الكل هو مايحكم حالته العاطفية .

إن كل حالات الاثبات تبدوا له « تجديفا أو شطحا »[1] « Blasphemous » كما تكون بعداً شديداً للمتصوف عن الحقيقه الفائقة للوصف والتى هى أكثر من كونهعا عقلا . وهى قبل العقل وبعد العقل ـ أى أنها تفوق كل منطق ، « ولهذه المجموعة من المشاعر والتى تساير التذوق الغرائزى للأفلاطونية المحدثه ، وفقدان الثقة المقاوم للخيال الشخصى ندين بكل الأوصاف السالبة للحقيقة السامية .

ولهذا النوع من النفوس فإن الله لايقع تحت وصف إنه الكل الأخر الذى لاتملك الكلمات التى تصفه والتى تقف أمامه كل رموزنا عاجزة وحقيره . ولكى تراه فلابد من الدخول إلى الظـلام « إلى سحابة الجهل » فندرك أننا لا نعرف شيئا عنه ، ولاشيىء آخر يمكن أن يشبع هذا الاذلال الروحى الشديد والذى يتكاثر ويتعاظم فى شكل الكبرياء الرقيقة التى ترفض الاذعان لحدود حالة المتأمل الطبيعية .

« إن الروح المتأمله تعلن أنه لا إله غير ذلك الاله الذى لايعرفه أحد ، والذى قد لايكون معروفا . هذا ماتعلنه تلك الروح دون تعثر أو فشـل .

إنه إلهى فقط الذى لايستطيع أحد أن يصفه بكلمة كما لايمكن أن تشير إليه أى فردوس أو تفهمه ، لأنه هو كل المعارف التى عرفوها عنه .

وحينما يحاولون أن يحددوا ويصفوا فهمهم بدقة عنه وعن اتصالهم بالواحد الغير قابل للوصف ، والذى هو منزل الروح الوحيد . فإن المتأملون من هذا الطراز ومثل رائدهم العظيم « الأريوباغى » لاشخصيون وتادرون .

أنهم يبدون وكأنهم قد أخطفوا إلى أعلى إلى إرتفاع شاهق حيث يندر الهواء الذى يغذى رئتى الانسان وعندما نسألهم عن طبيعة الحياة عند هذه القمم فإنهم سيكونون مجبرين وكقاعدة على تبنى مفهوم « ديونسيوس » عند الظلام المقدس ، أو الفكرة المتوازية مع الهاوية السحيقه ، وصحراء الأولوهية ،

---

(١) التجديف : الخروج على مالوف القول ويعد مقدمة للشطح ، والشطح كلام عليه رائحة رعونه ، أو هو كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، الا أن يكون صاحبه محفوظا . ويقول الجرجانى الشطح من زلات المحققين ـ راجع الطوسى ، اللمع ، ص ٤٥٣ ، الجرجانى ، التعريفات ، مادة شطح .

والفكرة الاكهارتيه Ec khartiam القائلة « يبى التوحش عندما لاينتم أحد للوطن » .

إنه فى لغتهم التى تتعلق بهذا المكان أو تلك الخطة المتعلقة بالحقيقة ، والتى فيها يتم الاتحاد بالجوهر الإلهى الحقيقى حيث يأخذ العقل مكانا فى « هذا الظلام الحالك أو الظلام االوضاء Lightsome darkness وهذا المفهوم الخصب الذى به يقتربون من الإيجاب الواضح . وكنتيجة لهذا يقدمون مفاجآت أعظم لما هو معروف بالألوهية التى تتصف بصفات البشرية « Antropomo rphic piety » أكثر من أى جزء آخر فى عملهم .

وبدون أن نسأل أو نناقش فان هذه اللغة وما تشير إليه دائما من معانى كالصحراء الساكنة ، والبحر الواسع ، والهوة السحيقة والتى فيها يكون الخواء واللاشيىء ، والظلام الذى فيه تدخل النفس إلى صلاة الصمت ، كل هذا يتزايد بطريقة لا متناهية ومع ذلك فالرضا الايجابى يتم الحصول عليه فى النهاية وتتم الاستجابة له من خلال تجربة سيكلوجية محددة .

وهذا ليس مجرد اقتناع لمدرسة ما . كما أن هذه الأوصاف على هذا النحو من التفكك يبدو عليها نوع من التأكيد الغريب ونوع أغرب من العواطف وواقعية شاذة يخصهم والتى تعنى أنه حينما نلتقى بها ، فإن هذه التجربة أو الخبرة وليس العادة هى مصدرها .

إن الضغط على عقولهم السطحية والسلبية التى طالما عرفوها عن طريق اللغة المرتبطة بها عند أقصى حدودها تصيبهم بالفشل عند كل دورة . إن هؤلاء المتأملون مازالوا قادرين على التواصل معنا وينقلون إلينا بعض الأخبار المحددة عن الحقيقة كما هى ، وعن المطلق اللامتغير ، وعن الاتحاد المبهج معه .

وهم يتفقون فى مقالاتهم عليه بطريقة تجعله واضحا لدرجه توضح أن كل هؤلاء الكتاب قد قاموا بالرحلة فى نفس الأرض وخبروا نفس التجربة الروحية وعلاوة على ذلك فإن عقولنا العميقة الباطنة تحمل شهوداً عليهم

ونحن نلتقى معهم فى منتصف الطريق ونعلم بالغريزة أنهم يقولون الحيقة ، وأنهم يثيرون فينا حنينا عاطفيا وشعوراً مريراً بالضياع والاغتراب .

إن الواحد أو الجميع من هؤلاء المستكشفون اللانهائية يطيرون إلى لغة معبرة عن فضاءات مترامية وعظيمة وبانسحابهم من عالم الحس القلق فإنهم يغرقون فى أرض الروح وفى هذا الوجود المرئى الظاهر باعتبارهم يمثلون مادة هذا كله .

وتنصهر الكثرة فى الوحدة ، إنها الوحدة التى تذوب فيها النفس المتأمله .

وهكذا فإن المتصوف يجد نفسه فى لحظة متحداً مع المقدس أو كما يقول تولر Tauler إنه ببساطة يكون فى الله . « إن هذا الضياع أو الفقد الذى يوجد فى هذه الأرض المقدسة كما يقول هذا السيد العظيم - ليس له صورة ، ولا شكل ، ولا حال ، لانهم ليسوا هنا وليسوا هناك . أنهم يبدون كما لوكانوا فى هوة عميقة ليس لها قاع كما أنها تطفوا فى نفسها . وحتى كما انساب الماء إلى أعلى أو إلى أسفل ، الأن يغرقون فى فجوة فتبدوا كمالو لم يوجد هناك ماء ثم يندفع بعد فترة قصيرة وكأنه سيبتلع كل شيء ، وهكذا يأتى ليمر فى هذه الهاوية . وهذا هو بحق عرش الله أكثر من السماء والانسان .

إن الانسان الراغب فى دخوله بشده سوف يجد الله هنا بالتأكيد ، وسوف يجد نفسه ببساطه فى الله لأن الله لا يفصل نفسه مطلقا عن هذه الأرض .

إن الله سيكون حاضراً معه ، وسوف يجد الأبدية ويستمع بها هنا . إنه لاحاضر ولا ماض هنا[1] كما لايوجد نور مخلوق يمكن أن يصل أو يشع فى أرض المقدس ، لأنه هنا فقط يوجد المكان الذى يسكن فيه الله كما أنه ملاذه وقدسه Sanctuary .

والأن فإن هذه الهوة السحيقة لايمكن أن يسير غورها مخلوق ، إنه لا أحد يمكن أن يملأها ، كما أنها لا ترضى أحد . إن الله وحده هو الذى يملأها أو

---

(١) ينكر الصوفية المتفلسفة من المسلمين حقيقة الزمان ، كما ينكرون تقسيم الزمان إلى ماض وحاضر ومستقبل فالماضى والمستقبل عند السهرورى المقتول لايتناهى ، كما أن طرفى الزمان عند ابن عربى هما الأزل والأبد ، فلا أول له ولا آخر ، فالزمان متوهم لا وجود له والأزل وصف سلبى لا وجود له أيضا فإنه هو عين الله وماثم إلا الله - وهى وحدة وجود شهودية ، راجع إبن عربى الفتوحات المكية ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٦١ .

كذلك راجع السهرودى حكمة الاشراق ، استانبول ١٩٤٥م ، ص ١٨٢، ١٨٣

يحتويها فى لانهائيته وإطلاقه لأن هذه الهاوية تنتمى إلى الهاوية المطلقة والتى وصفت بأنها الهاوية المقدسة أو كما يقال « Abyssus abyssum » .

إن الذى يعى هذه الأرض حقا والتى تشع فى قوى روحه ، والتى أضاءت وتعلقت بأدنى وأسمى قواه لتحولها إلى مصدرها الخالص وأصلها الحقيقى يجب أن يتفحص نفسه بثقه ، ويبقى وحيداً ينصت إلى ذلك الصوت الذى يصرخ فى برية هذه الأرض .

هذه الأرض القاحلة الجرداء والتى لم يدخلها أو يشغلها أى فكر . انه ولافكرة واحدة من أفكار الإنسان قد كرثت بمساعدة العقل لتأمل الثالوث المقدس (ولقد شغل بعض الناس أنفسهم بهذاه الأفكار) التى لم تدخل هذه الأرض الخراب . لأنها هى القريبة جداً ومع ذلك فهى البعيدة جداً بل هى بعيدة وأبعد من كل الأشياء لدرجة أنه لا يداخلها مكان أو زمان . إنها حالة بسيطة ولا متغيرة

إن الإنسان الذى يدخلها حقا وصدقا يشعر كما لوكان قد تخلل الأبدية eternity وأنه كان هناك واحداً معها . ولقد كتب الكثير من المتصوفة عن هذا النوع من التأثير فوصفوا عظمته وبهاء الفرح الذى لايوصف ومخاوف غيب الوجود « حيث يوجد الانسان فى الله » ومن مغامرات الروح « عندما تنسحب من حيتها » .

أنها ترسل الموجات المتلاطمة فى « بحر المقدس » ولكن كلماتها تدهش نقط الدخيل وتعطيه قليل من المعلومات . إن النفس المتأملة التى حصلت على هذا المكان الغريب أو القطر النائى يمكن فقط أن تقدم عالما مدهشا لايصدق وهو منتهى التجريد deprivation وهو أيضا منتهى الفرح للمتصوف لأنه ههنا نكون فيض العاطفة والاستسلام أمران متساويان ، وههنا يكون الجهل والمعرفة والنور والظلام شيئا واحداً .

إن الحب يقوده إلى حيث اللازمانية وعالم الوجود اللاقضائى الذى يعد أرض

السلام ليس فقط بالنسبة لروح الفرد الجائعة ولكن أيضا بالنسبة للوجود الجائع وهنا يمكن أن يصيح مــع « فليب» إن فى هذا الكفاية .

وهنا يقول Maetelink نحن نقف فجأة على حدود الفكر البشرى وبعيداً عن الدائرة القطبية العقلية حيث البرودة الشديدة والظلام الحالك ومع ذلك فلن تجد شيئا سوى اللهب والضياء .

ولكن بالنسبة لهؤلاء الذين جاءوا دون أن يدربوا أرواحهم على هذا النوع الجديد من الإدراك أو التصورات ، فإن هذا الضوء وهذه الأشعة تكون مظلمة وباردة كما لوكانت غير حقيقية أو تبدو وكأنها مجرد نقوش . وهنا نهتم بأدق العلوم : باستكشاف الأكثر خشونة ، والأراضى المقدسة الغير قابلة للسكنى إعرف نفسك : وسوف تشرق أشعة منتصف الليل على ذلك البحر الهادر المضطرب وحيث ، تندمج الحالة النفسية للإنسان بالحالة النفسية للرب [1] .

فمن ناحية يبدو الضوء واللهب ، ضوء الحىّ والحب الخلاق الذى يملأ الكون - من ناحية أخرى صحراء الأولوهية « تتعدى كل تعاقب أو ظلام إلى منظر واحد حيث أرض ميلاد الإنسان .

وتحت هاتين الاستعارتين التى تمثل إحداهما استعارة إيجابية والأخرى تناقضاته - وتقريبا فى كل خبرة الإنسان التأملية عن المطلق التى يمكن أن تكون والتى يمكن التعبير عنها .

لقد اعتبرنا وصفه السالب عن التسامى المطلق : الذى يعترف « بالجهل المقدس » الذى يعد أعلى المعارف : لكن هذا يكون متوازنا فى قليل من الأرواح المنتقاه ، عن طريق التأمل الايجابى للحقيقة والفهم الفائق « للخطة السرية » .

إن بعض أندر المتصوفة يبدو أنهم قادرون على أن يصفوا لنا الرؤية السعيدة

---

(١) Maeterlinck , Intro duction Ruysbroeck's " L'Ornement des Noces Spirituelles" P.V. par .xxx . 61 -128.
وفيه يعترف اللاهوتيون فى أحد المقطوعات الشعرية بإتصال الروح بأحد نواحى الحقيقة المقدسة والتى تتأكد فى أعمال رودلف أتو كارل باث هامش ص ، ٢٤٠ .

Beatific vision التى يتم إختبارها هنا والآن إنها رؤية تتم عن طريق الاشتغال القلبى بالحقيقة والتى تشمل فى « كل واحد » عظيم خطط الوجود والاتحاد ، من حيث لحظيته وبهجته ، كما تشمل الأب الخالد The Eternal father وتجليه manifistation فى الكلمة الفاعلة النشطة « energetic word » وفى كل هذا نحن نرى شيئا مامن قوته التى تميز العبقرية الصوفية الخاصة بالأمر السامى فى دراسة خواص لحظة التنوير .

وفى أعظم التعبيرات الأدبية الموجودة فى القطعة المسماه الفردوس Paradiso [1] حيث يخبرنا دانتى Dante كيف نفذ لبرهة الى سر هذا الخلد أو النعيم Empyrear أو السماء ولقد استمتع فعلا بالرؤيا الرمزية للحقيقة المزدوجة كما لو كانت نهر متحرك من الضوء وكالوردة البيضاء الساكنة ثم كيف تختفى هاتان الحقيقتان ليرى (الواحد) .

ومن خلال الفهم الدانتى للحقيقة الأزلية والاتحاد التأملى بالشخصية المقدسة يوجد نوع من المتصوفة الذين لاتكون مدركاتهم لما يسمو على الحواس شخصية تماما ، ولا هى كونية Cosmic تماما أو متعالية Trans cendental النوع . فبالنسبة له يكون الله مثالا للخير الكامل والحق والجمال والنور والحياة والحب وكل هذه الصفات إنما تتكشف فى لحظة من لحظات الصفاء للنفس الباحثه

See Moeterlinck Introduction to Ruysbroeck's "L ,ornment des Noceas Sirituelles" par xxx iii 52 -63 -76-81 - 97 -105 -

يقول فى القطعة المشار إليها بعنوان الفردوس لقد صارت رؤيتى نقية خالصة ، تجتاز أعمق فأعمق خلال أشعة الضياء السامى الذى يعد حقيقة فى ذاته - ثم أصبحت رؤيتى أعظم من لغتنا التى تفسدها هذا المشهد وأعظم من الذاكرة التى تفسد أيضا ذلك التجاوز أو الافراط . وكما يرى الرائى فى حلمه وبعد أن يذهب الحلم يبقى إنطباع العاطفة ، ولكن البقية تعود ليس للعقل . مثلما أكون أنا . لأن كل الرؤية يتلاشى . ومع ذلك تظل أبار من الحلاوة داخل قلبى أبار من السعادة تولدت هناك عن هذه الرؤية . وأنى أعتقد أنه بواسطة حدة الأشعة الحية التى تحملتها أكون قد فقدت وتلاشيت وبمجرد أن أنحى عيناى جانبا أتذكر أنه من أجل هنا كنت الأشجع طالما كنت أدعم رويتى كما لوكنت أفك إرتباطها بالمطلق .... وهكذا يفعل عقلى حيث يكون فى ترقب كلى يحملق بثبات ، ولايتحرك يشتعل دائما برؤياه . وبحضور هذا الضياء يصبح الانسان هكذا لدرجة أن الواحد لايمكن أن يقبل التحول عنها إلى أى منظر أخر لأن الخير الذى هو موضوع الارادة يتجمع هنا ، وخارج هذا يوجد النقص الموجود فى الكمال .

See ; P. 341 .

وهنا فإن الرموز التى يدرك بها ماتزال من تجريدات الفلسفة ولكن هذه الرموز عند المتصوف تتوقف عن أن تكون مجردة وتتصل بالحياة ، مثل هؤلاء المتأملون لايحتفظون بصورة معينة وإنما بشخصية مطلقة غير قابلة للوصف تنتقل عن طريق التأمل إلى إحساس بالبهجة والحب الشخصى . وتتحدث انجيلا فولجنوا فى قطعة أخاذه عن الهاماتها Revelations وهى تصيح فجأة « رأيت الله . فسألتها سكرتيرتها ماذا شاهدت ، وكيف شاهدت ، وهل شاهدت شيئا مجسداً فأجابت أنها شاهدت الملأ والوضوح وشعرت بهما فى داخلها بدرجة قوية حتى أنها تتمكن من وصف هذه الحالة أو تجد وجها للشبه معها .

وتقول : إنه لايمكن القول أنى رأيت شيئا مجسدا إنه شيىء بدا كما لوكان فى السماء : إنه جمال عظيم جداً لدرجة أننى لا أستطيع أن أقول شيىء يتعلق به فيما عدا أنه جمال سامى وخير مقدس . ومرة أخرى وجدتنى متعلقة بالملاء الالهى الذى لايمكن وصفه .

(ب) تأمل الحضور الالهى .

إن المجموعة الثانية من المتأملين محكومة بواسطة الحب الذى ينبذ الخوف بواسطة هذا الإحساس المسيطر من القرب والألفة والعذوبة ، أكثر من الغرابة والإدراك الفائق للحس الذى لايمكن الحصول عليه عن هذه الحياة المطلقة نفسها والتى عندها يمكن أن تلتقط المجموعة الأولى صوراً يبدو أنه تم استعارتها من الشعر الميتافيزيى ، وهذا مايقوله هلتون Hilton فى صورة محبوبة وبديعة « إنها التى يغذيها هذا الوجه الخفى المبارك » وهذه المشاعر التى تفيض من الفرح والثقه والعاطفة أكثر من تلك التى تتجمع من الشر والحسد وبالرغم من أن الحسد موجود إلى حد ما ـ كما يوجد فى جميع أنواع الحب الكامل فانه هنا يساهم فى وصف الحقيقة .

ويخبرنا هؤلاء المتأملون عن وصولهم إلى الله وإتصالهم به ، كأقرب شيىء إليهم وكذلك باعتباره أبهج أنواع الاتحاد ، إنها فرحة تشبه فرحة مقدم العروس إلى عريسها وكما يقول رول Rolle أنه لاشيء أكثر مدعاة للبهجة والفرح من

الأرواح البسيطة ، تلك الروح الممتلئة بالسرور والفرح ، تتمتم بالسلام وتمتلىء بالفرح الوحشى ، وبكل حالة من حالات السرور المعروفة للوعى الانسانى السوى ذلك الوعى الذى لايعد كافيا لوصف البهجة . لقد شاركت تلك الروح ولو لحظة فى حياة المقدس ، إنها تعرف الكل كما أنها لا تعرف شئ لقد علمت أسرار العالم ليس عن طريق المعرفة وإنما عن طريق الوجود ، وهى الطريقة الوحيدة للمعرفة الحقيقية لأى شئ .

وحيث تكون العاطفة السائدة ذات الحب القوى ، وحيث يكون تدريب المتصوف مما يجعله يؤكد النزعة الشخصانية أو الحلولية Incarnational أكثر مما يؤكد النزعة التجريدية أو الجانب التثليثى Trinitarian فى المسيحية فإن التأمل من هذا النوع سوف ينحو دائما تجاه وصف سره لنا على أنه تجربة مستحبة تعبر عن الصداقة

إن الحقيقة بالنسبه له هي « شخص وليست حالة »

وفى صلاة الاتحاد Orison of union يبدوا للمتأمل أن اتحاداً حقيقيا ومزجا للنفس مع هذه النفس المشخصة يأخذ مكانة مع الله و يقابل الروح فى أرضها ، وعلي سبيل المثال فى العمق السوى للشخصية حيث نشارك حياة المطلق .

وبوضوح فإن درجة التأمل ، والحالة النفسية تكون هنا مشابهة لنفس الحالات التى يعانيها المتصوف من النوع غير الشخصانى ، والذى يدخل العتبة ولكن من وجهة النظر الموضوعية ، هذه المواجهة الشخصية المرحة للحبيب والمحبوب تكون تجربة مختلفة عن امتزاج الروح (فى صحراء الألوهية) كما يصفها اكهارت Eckhart ومدرسته ـ وفى هذا المجال يقول هلتون Hilton هو ذلك الزواج الذي يتم فيما بين الله والروح ، وهو ذلك الزواج الذى لا تنقصم عراة قط . (١)

وتمثل القديسة تريزا Teresa المثل الكلاسيكى لهذا النوع من التأمل الذى يدل على المحبة القوية ، ولكن القديس جرترد Gertrude وسوسو , Sosoوجوليان

(1) See The Scale of Perfection ; bki cap viii seetoo P. 343.

Julian ومتشلد Mechthild وآخرين يجلون عن الحصر يعطون المثل الحيّ لهذه العملية .

إننا ندين لها بكل التعبيرات الجميلة المؤثرة للحب الصوفى . تقول جوليان لقد رأيته وبحثت عنه (لقد حصلت عليه ، وأردته) وهذه عبارات تعبر عن فى براعة عن اتحاد النشوة ، والرغبة وفهمها لحضور الود والقداسة .

وهكذا يفعل وصفها « للتجلى العاشر » للحب عندما توضح أنه مع هذه المتعة السارة يتضح فهم الألوهية المباركة ، فهذا الجانب الالهى يحرك هذه الروح الفقيرة كى تفهم مايمكن أن يقال عنه : التفكير فى الحب الأبدى الذى لابداية له ولا نهاية وفى هذا يقول إلهنا العظيم ، هل تعلم كم أحبك ياعبدى ، كما لوكان يقول عزيزى انظر وشاهد ربك إلهك . إنه صانعك مع ذلك الحب اللانهائى .[(١)]

لقد فتحت عينى روحها كما يقول الكاتب الذى دون إلهامات انچيلا فولجنو Angelo foligno ـ رأت الحب يتقدم نحوها برقة وشاهدت الحب البداية لكنها لم تشاهد النهاية ذلك أنه كان حبا مستمراً ، ولم يكن هناك لون مما يمكن أن يقارن به هذا الحب . لقد وصلها مباشرة ورأته من خلال عينى روحها ـ أكثر وضوحا مالوكانت الرؤية عن طريق عين الجسد ـ يأخذ نحوها شكلا ظاهريا بصفة دائرى أوشكل المنجل . لم يكن هناك تشابها حقيقيا فى المقاييس لكن هذا الحب اتخذ مظهراً خارجيا أشبه بالمنجل . لأنه انسحب أو تراجع ولم يعط نفسه صفة كلية للفهم الذى كان قد سمح به وكما فهم سابقا إلا أنها فهمته مما جعلها ترنو إليه أكثر[(٢)] .

ويرجع الفضل إلي متشيلد « Mechthild of Magdeburg » حيث تدين لها بأتم تعريف لهذا النوع من الاتحاد بين المتصوف وصديقه ، إنها تقول ان الصلاة تهبط بالاله العظيم الى داخل القلب الصغير : إنها تدفع الروح الجائعة لتخرج كى تلتقى بالله الكامل .إنها تجمع معا كلا المحبين ـ الله والروح ـ فى حيز يهيج حيث يتحدثان كثيراً عن الحب .

---

(1) Re Velation of Divine Love " Cap xxiv .
(2) St . Angele op . cit P. 156 (English Translation P.173 . see too P. 343 , 344.

والأن قد فهمنا أن نظرية التثليث ، تجعل من الممكن للمتصوفة المسيحيون - وكذلك للتصوف المسيحى بصفة عامة إمكانية التوفيق بين هذه النظرية فى فهم الحقيقة والطريقة السالبة اللاشخصيةلإدراك الواحد الفائق للوصف ineffable , المطلق الذى ليس له صورة ، وبالرغم من أن هذا التصورفى شكلة الجاد يتعارض بشدة وتبرير نظرية إكهارث Eckhart التى تهتم بالتميز بـــين « الكل أو المجموع الغير قابل للمعرفة للأولوهية - والشخصية القابلة للمعرفة للرب »
unknowable totolity of the Goháed and the knowable Personality of God

أو بين الصورة والدائرة[1] ، ومع ذلك فهى تمثل فهما متبانيا للكل الواحد One whole .

ويشعر كل المتصوفة بصفة عامة والمدرسة الالمانية بصفة خاصة الذين عبروا عن إعتقاد دانتى بأن هذين الجانبين للحقيقة - أو أن هاتين الخطتين للوجود بالرغم من إختلافهما البين يمثلان شيئا واحداً .

إن كليهما طريقتين لوصف طرق الإتصال الجزئية بين الإنسان والحقيقة المطلقة .

فإذا أردنا أن نفهم الحقيقة الكاملة ، فهى قريبة بعيدة حاضرة غائبة فهنا هو وصف الرب .

إن كلا الفهمين ضرورى لو أردنا أن نكون أى فكرة عن الحقيقة الكاملة ،ومع أن هذه الفكرة ليست صحيحة تماما مثلما يجب أن تكون إذ أنها أشبه برجلين يذهبان معا إلى بلد غير معروف ، فإن أحدهما سوف يعود ومعه أنباء ومعلومات عن مساحاته العظيمة ، ومناظره الجميله ويحصل الآخر على معلومات أخرى عن التكوين الجولوجي - عن نباتاته وحيواناته التى تعبر عن حياته وكلاهما يجب أخذهما فى الاعتبار قبل أى تقييم دقيق يتم للبلد الحقيقى .

ولأن هذا هو جوهر الدين المسيحى الذى يوحد بين الشخصية والحقيقة الميتافيزيقية ، الاله المتسامى والاله الحلولى فليس من الدهش أن نجد فى

---

(١) تقصد المؤلفه هنا أن هناك غموضا فيما يتعلق بفهم الألوهية الغيبية بينما يمكن أن تفهم فيما يتعلق بالشخصية المعروفة للرب عند المسيحيين .

المسيحية أسسا فلسفية لاهوتية لهذا النوع من التناقض فى التجربة التأملية .

وغالبا وليس دائما يعرف المسيحيون من المتصوفة الحب الشخصى الحميم والوثيق الصلة بالروح والذى يكون واعيا بوعيه بحضوره مع شخصية المسيح ذلك « الغير قابل للمعرفة ، أو الأولوهية المتسامية » أو الخلود الساطع . ذلك الواحد غير المتمايز ، الواحد الذى فيه تتمثل الشخصية الثلاثية . ومن آن لآخر يميل المتأملون العمليون الى واحد من هذين الفهمين للحقيقة .اما الى المقابلة الشخصية الاعقلية على أرض الروح ، أو الى ذلك السرور أو البهجة العظيمة لهذه الروح البسيطة والقائمة من قبل وعى التسامى اللاشخصى والذى لايمكن أن تعبر عنه لغة إلا لغة السلب [1]

ومع ذلك ففى بعض الحالات فإن كلا النوعين من الإدراك يبدو أنهما يوجدان معا . وهما يتحدثان بصفة كلية عن النور والظلام ، وعن المواجهة المرحة بحب ،وفقدان النفس السامى فى الهاوية المجردة أو فى صحراء الجوهر الالهى .

ويعد رويز بروك Ruysbroeck هو المثال الكامل لهذا النوع من التأمل ، وتحتوى أعماله على كثير من القطع الوصفية القيمة لهذه الخبرة التركيبيه الموحدة synthetic والتى تلخص مجمل النواحى السامية للحقيقه الصوفية

يقول هذا القديس أنه عندما " نقول أننا " نرى نقصد القول أنه عندما نكون متصلين بالتدفق الروحى ، نكون قادرين على التأمل في فرح مقدم العروس الأزلى ، وهذه هى النقطة الثانية التى سوف أتناولها بالحديث . فماذا يكون إذن مقدم العروس الأزلى ؟

إنه ميلاد دائم وتنوير دائم وجديد illuminatian لأن الأرض التى يشرق عليهتا النور بأشعته ، والتى تعد هى ذاتها النور ، هى منتجه الحياة وباعثتها ، ومن ثم فأن الفيض manifestation الخاص بالنور الأبدى يتجدد دون إزعاج فى

---

(١) الألوهية السلبية أو الأولوهية التى لا تصفها غير السلوب موضوع أحد الفصول التى يخصصها وولتر ستيس لوصف الأولوهية فى كتابه الزمان والأزل الذى ترجمه الدكتور زكريا إبراهيم ، طبعة بيروت ١٩٦٧ م ، ص.ص ٤٩:٨٢ .

مخبأ الروح .

أنظر ! فهنا كل الأعمال البشرية ، والفضائل النشطة يجب أن تتوقف لأنه ههنا يعمل الله وحده عند قمة الروح . وهنا لاشيىء يوجد سوى الرؤية الأزلية والنظر إى هذا النور بواسطة النور وفى النور. [١]

ويكون مقدم العروس سريعا جداً لدرجة أنه يأتى سرمديا ، ثم أنه يمتزج بنا ويعيش فينا بخيره ، ثم أنه يعود إلينا جديداً فى الشخصية ودون إنقطاع وبسبب هذا التجدد فإنه يبدو وكأنه لم يأت إلينا من قبل ، ولأن مقدمه يكون مع اشتياق جديد ومع فرحة جديده .

أنظر ! هذه البهجه وهذه الأفراح التى تجلبها العروس عند مقدمها - إنها هى السبب فى أن العيون الروحيه التى بها تتأمل الروح العروس تكون مفتوحة على مصراعيها لدرجة أنها لايمكن أن تتغلق مرة ثانية .

والآن فإن هذا اللقاء النشط ، وهذا الاحتضان المحب ، هما فى جوهرهما إثمار غير مشروط - ذلك أن إطلاق الله ولانهائيته هو شيىء مظلم جداً ومجرد جداً من كل صورة ويخفى فى نفسه كل الصفات والأعمال المقدسة ، كل صفات الأشخاص فى الكل المتضمن فى ثراء الوحدة الجوهرى . وهو ماينتج عنه من الاثمار المقدس فى الألوهية التى لايمكن وصفها . وهنا الموت والراحة والذوبان ثم الموت [٢] والتلاشى فى الوجود الخالص ، حيث تكون كل اسماء الله ، وكل

---

(١) يعتقد بعض المتصوفة المسلمون أنه فى حال الفناء يفنى الصوفى عن كل شيىء فى الوجود . فلايبقى له شيىء منه ثم لايبقى معه شيىء

من نفسه ، ولا يبقى له سوى الله المشار إليه هنا بالنور الكاشف للنور يقول الطوسى فى اللمع « .... ليس لله نور موصوف محدود والذى وصف الله تعالى به نفسه فليس ذلك بمدرك ولامحدود ، ولايحيط به علم الخلق ، وكل نور تحيط به العلوم والفهوم فهو مخلوق وأنوار الله تعالى كلها هدايات الخلق ، وأنوار المصنوعات دلائل وعبرة يستدلوا بها على معرفة التوحيد ، يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر » راجع أبو نصر السراج الطوسى ، اللمع ، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى مصر ١٩٦٠م ، ص ٥٤٩ .

(٢) الموت مصطلح سبق أن أشرنا إليه فى المقدمة على أنه هو الحياة ، فموت الهوى حياة القلوب وقد ذكر محيى الدين بن عربى أصنافا للموت ، فمنه الموت الأبيض : ويقصد به الجوع لأنه ينور الباطن ويبيض وجه القلب .

والموت الأخضر : ويقصد به إخضرار العيش بالقناعة .

حالاته ، وكل صوره الحية التي انعكست على مرآة الحقيقة المقدسة قد ذابت وأمتصت في البساطة التى لاتوصف وفى غيبه الصورة والمعرفة ، لأنه فى مثل هذا الاثمار اللانهائى تبقى الهوة نفسها واضحه فى هذه الوحدة الجوهرية وإن الاشخاص وكل مايعيش فى الله يجب أن يعطى مكان لهذا . فههنا لاشيء موجود سوى الراحة الأبدية والعناق المعبر عن الحب الحارق ، ثم أن هذا هو الوجود الذى لايوصل إليه طريق والذى إختارته كل الأرواح الباطنة قبل كل شيىء . وهذا هو الصمت المطبق الذى يفقد فيه المحبون أنفسهم .

وهنا يبدأ رويزبروك ruysbroeck برمز الشخصية المقدسة كعروس للروح ، ذلك الذى يشبه ماكان فى عقل قديسه سيناء كاترين catherine والتى تنتهى فوق قمم الميتافيزيقا المسيحية ، بذلك الوصف الخاص بالإنغـــمـــاس المحبوب للنفس فى الواحد الذى لايقيده شرط ، والذى يتعدى الشخصيات الدينيه .

ويفتقر إلى الحديث البشرى ، ويبدو لنا متمسكا بيأس بالكلمات والتشبيهات والتى يأمل أنها ستعطى لمحة عن الاثمار الروحى بالحقيقة ، وعن ذلك التباين الذى لايقاس فى نوع الأحلام وكذلك فى الخطط الدينيه المجسمه anthropomrphic .

إن عباراته الغريبة فيما يتعلق بالهوة المقدسة divine Abyss تتفق مع تلك العبارات التى إقتبستها من أعمال المتأملين الذين يرفضون أن تضللهم النواح العاطفية الخاصة بتجاربهم ، ولهذا فقد ناضلوا ليخبرونا ــ كما يعتقدون ــ ليس بما يشعرون فقط ، ولكن بما يلاحظونه ويشاهدونه أيضا .

إن عبقرية رويزبروك الصوفية رغم عمقها وكمال حدسها بالحقيقة ، لا تسمح له بمجرد الوصف المكانى أو الميتافزيقى للألوهية ، فاللقاء الايجابى النشط والعناق المعبر عن الحب كما يرى جزء لايتجزأ من العمل التأملى .

ففى هذا السكون الحالم حيث يتلاشى المحبون ويفقدون أنفسهم يلتقى المتشخص بالشخص . APerson meets aperson

والموت الأسود : وهو احتمال الأذى من الخلق ... وهو الفناء فى الله لشهوده الأذى معه برؤية فناء الأفعال فى فعل محبوبه ، بل برؤية نفسه وأنفسهم فانين فى المحبوب .
راجع اصطلاحات الصوفية ، مادة موت .

ثم أن هذا ليس هو المطلق الفلسفى الذى اختارته كل الأرواح الباطنيه قبل كل شيىء .

وعلينا الأن ننظر إلى الطريقه التى يمكن بها للمتأمل أن يحقق وحدة لامثيل لها مع الحياة المطلقة ، إنه نوع النشاط الذى يبدو أنه أحد خواص إندماجه بالحقيقه .

وكما يجب أن نتوقع فإن هذا النشاط مثل نتيجته من نوعين : نوع شخصى إيجابى ونوع لاشخصى وسالب . ومن الواضح أنه حيث يدرك الكمال المقدس كرفيق للروح - أو بإعتباره العريس أو المحبوب ، فإن طريقة الاقتراب سوف تكون مختلفة عن تلك التى تنتهى باندماج النفس فى البهاء المتناقض للهوة المقدسة والتي تظل منطقة موحشة لا يشعر فيها أحد أنه فى موطنه . إنه كل الاختلاف بين الاعداد للزفاف واستكشاف البحار المتجمده .

ومن ثم فنحن نجد أنه عند أحد كفتى الميزان هذا الشكل من الاتحاد الشخصى الوثيق ، والإتجاه ناحية المحبوب ، والذى يسميه المتصوفه صلاة الاتحاد ، وعند الكفه الأخرى من كفتى الميزان نجد التأمل المظلم والذى بواسطته ترعى النفوس الوحيده المعدة للتسامى ، وكذلك النوع اللاشخصى أو القرب من الواحد اللامقيد بشرط .

ويعطينا « ديونسيوس » المثال الكلاسيكى للتأمل المظلم والذى لا اسم له ولا وصف ، ذلك الامتصاص فى المطلق والتلاشى فيه - إنه هو الذى أعطى لها اسم الظلام المقدس divine Darkness ، ولقد استعار منه كل المتصوفه الذين جاءوا بعده تلك اللغة ، وقد كانت أوصافه تلك التى قدمها القديس أوغسطين للحقيقه التى وصل إليها والتى يمكن أن يصل إليها الأخرون لو ساروا على نفس طريقته

يقول فى أحد رسائله « أما بالنسبة لك عزيزى تيموثى Timothy ، إنى أنصحك حال قيامك بالتدريبات الجادة على التأمل الصوفى أن تترك الحواس والعمليات العقلية ، وكذلك كل الأشياء المتعلقة أو المدركة بالحواس أو العقل ، بل أترك كل شيىء فى هذا العالم عالم العدم nothingness أو عالم الوجود ، وبهذا الاتجاه يستريح فهمك وإدراكك ، ثم أنك يجب أن تصعد بقدر ماتستطيع

نحو الاتحاد معه (مع الرب) الذى لايحويه وجود أو يدركه فهم - لأنه عن طريق رفضك المطلق الذى لايتوقف أبدا « لذاتك » ورفضك لكل الأشياء سوف تلقى كل الأشياء جانبا وتنعم بالنقاء ، بل ستتحرر من الكل - وهكذا تتجه إلى أعلى حيث أشعه الظلام المقدس ray of that divine Darkness الذى يفوق كل وجود .

ومرة أخرى فإن هذا الظلام المقدس ماهو إلا ذلك الضوء الذى لايمكن الوصول إليه حيث يسكن فى الرب وبه يمتزج . وبالرغم من أن هذا النور النور غيرمرئى بسبب توهجة وشدة اضاءته المتلألئه التى تبهر العين ، حيث لايمكن البحث عنه أيضا بسبب هذا الفيض من النور الساطع ، ومع ذلك فإن ذلك الذى يستحق أن يرى ويعرف الله يجد الراحة هناك ، وبواسطة هذه الحقيقة نفسها فهو لايرى ولا يعرف لأنها حقيقة تتفوق على كل الحقائق والمعارف بمعنى أنها عصية على المعرفة .[1]

ولقد أصبح من الشائع بالنسبة لكتاب التصوف أن كل المتأملون الذين أتو بعد« دينسيوس » قد أخذوا منه فكرة « الظلام المقدس » والمدخل اليها باعتبارها أعلى مزايا الروح . لقد أخذوها كفكرة سابقة الاعداد أو جاهزة ، وأدخلوها فى تقليدهم . ولكى تناقش هكذا فأنت تنسى أولا وقبل كل شيىء أن الصوفية إناس عمليون ، أنهم لايكتبون لكى يتناولوا موضوعا فلسفيا ، ولكن من أجل أن يصفوا شيئا قد مارسوه ، شيىء مايستشعرون أنه ذو أهمية قصوى بالنسبة للبشرية ، ولذلك فإنهم إذا ما أصروا وتمسكوا باستخدام هذا التشبيه .

الظلام «Darkness » لوصف خبرتهم في التأمل ، فإن هذا يكون فقط لأنه متناسبا مع الحقائق . فلا يحتاج أحداً من اتباع هيجل أن نخبره أننا فى حاجة لاضافة عكس ذلك قبل أن نأمل الاقتراب من الحقيقة ـ وهذا هو بالضبط العكس من « الجهل المظلم » الذي يقدمه صوفية البهجة أو صوفية النشوة من

---

(١) فى خطاب أرسل إلى دوروثى Dorothy . أحد الشمامسه توجد قطعه شعرية تشير إلى كيفية المعرفة والإتحاد بالله تقول . يقول البعض أنه يوجد فى الله ظلام عميق ولكنه متوهج . وكما يقول الناس هنا إنه ظلام متأخر أشبه بوقت الغسق لأنه لاشىء فيه واضح .
آه . فى مثل تلك الليلة حيث أكون أنا فيه وقد أكون حيا لا مرئيا ومعتما
See - Dionysius the Areopagite "oe Mystica Theologia"

ذلك النوع الاتحادى والذين يجدون إشباعهم فى التجربة الايجابية للاتحاد المسمى عندهم الزواج الصوفى للروح Mystical marriage of the soul .

والآن ماذا يقصد أصحاب هذه الصورة المعروفة بالظلام وماذا يعنون حقا ؟ إنهم يقصدون هذا : إن الله فى حقيقته المطلقة هو مما لايمكن معرفته (١) . إنه ظلام - بالنسبة للعقل - وهو أشبه بما ذكرنا به « برحسون » من تكيف لأعراض أخرى غير تلك المختصه بالحدس بالمقدس Divine intuition .

وعندما يصل الصوفى إلى حالة سامية من الحب الصوفى فإن كل شخصية الانسان تتصل بهذه الحقيقة وتدخل دائرة الخبرة والتى لايمكن أن تنطبق عليها أحد الأوجه العقلية . إن العقل يجد نفسه فى أعظم حالات الإحساس « بالظلام » منغمسا فى « سحابلة الجهل » ويكون غموض وضياع العقل بالضرورة جزء لايتجزأ من تجربة صعود الصوفى إلى المطلق . هذا السر الكبير المقدس لن يكون معروفا للقلب حتى نعترف أنه غير معروف للعقل وكذلك يتجاوب مع وصيــــة « ديونسيوس» فيما يتعلق بترك العمليات العقلية الخاصة بالفهم من جانب واحد : إن حركة المتأمل يجب أن تكون حركة كل الإنسان يجب أن يتصور نفسه حراً ، وغير مقيد على صدر الحقيقة . وعندما يتمكن من معرفة ذلك المنظر المتسامى ومن تلك المعرفة ، هنا يكون متأكداً أنه يكون قد تعدى ذلك العالم الذى تكون هذه الملكات قادرة على التعامل معه . وعندما يدرك أنه فى الآخر المقدس الذى يفوق كل الأفكار وكل الصور يقول جلال الدين الرومى فى أشعاره هذا الحب (٢) به تحلق طائراً تجاه السماء لتفض فى كل لحظة مائة حجاب وتنكر الحياة فى اللحظة الأولى فى آخر خطوة تسافر بلا أقدام لتلحظ هذا العالم كشيء غير مرئى وليس لترى مايبدو لنفسك .

---

(١) تبرز هنا فكرة إستحالة معرفة الله حق المعرفة إذ أنه مهما كان مقدار مايحصل عليه المتصوف من معرفة عن الله فإن الله يبقى غير ذلك فلا يعرف الله سوى الله .

(٢) يرى الصوفية المسلمون أن المحبة أو الحب من المواهب الالهية وليست من المكاسب البشرية - ويرون -

هذا الاعتراف بهذا الجهل العقلى ، وهذا الاستسلام المتواضع هو المدخل إلى حيث سحابة الجهل ، إنه الخطوة الأولى تجاه معرفة المطلق لأن الصدق والوداعة أختان شقيقتان حقيقيتان كما يقول « هلتون Hilton » ، مربوطتان معا بالحب والإحسان كما لاتوجد بينهما مسافة فاصلة .

يقول مؤلف كتابه سحابة عدم المعرفة « أنت تسألنى وتقول « كيف سأفكر في الرب . ؟ وماذا يكون ؟ وعن هذه الأسئلة لا أستطيع أن أجيبك إلا أن أقول لك .. لأن سؤالك قادنى إلى نفس الظلام ، إلى تلك السحابة من الجهل .. وعدم المعرفة ، وفيما يتعلق بالمخلوقات الأخرى وأعمالها . وكذلك فيما يتعلق بأفعال الله بالنسبة لها فقد أعرف معرفه كاملة عن طريق الفضل الالهى - وقد أفكر فى كل هذا إلا أننى أستطيع أن أعرف الرب ولا يستطيع أحد أن يفكر فيه - لذلك فإنى سوف أترك كل ما أفكر فيه ، وسوف أختار لحبى هذا الشىء أو تلك (الأنا) التى لايمكننى أن أفكر فيها . هذا هو السبب فى أن الله يبدو محبوبا أو يتجلى فى حالات الحب ولايتجلى للفكر ، وبالحب يتم الوصول إليه ورؤيته لكنهَ أبداً لايتأتى للفكر .

إن سحابة الجهل هذه إنما تنقشع بضربة مباغته من سهام الحب الشديد .

لهذا السبب فطالما كان هدف التأمل الصوفى متاحا للفكر و شيىء يمكن للمتأمل أن يعرفه فإنه ربما سيكون على يقين أن هذا ليس هو « المطلق» ولكنها فقط مجرد صورة جزئيه أو رمز للمطلق Symbol of Absolute - ولكى يجد الحقيقة النهائية عليه أن يدخل إلى سحابة عدم المعرفة ، وعليه أن يجتاز الخطط العقلية لينفذ إلى ماوراء العمل العقلى .

أن كل بناء رسا علىَ العشق والمحبة فإنه حقيقى ، وكل ماكان غير ذلك فهو وسوسه وقيل وقال ، وباعث على التفرقة والحرب والخصام ، وبقوة جاذبية العشق والمحبة يتحرر العارف من قيد الوجود ، ويصل ببعد الفقر والفناء أى أنه ينغمر فى عالم الوصال

يقول عبد الرحمن الجامى

سيف «لا» عمل فى قتل ماسوى الحق   فانظرماذا بقى فى النهاية بعـد « لا »

مابقى « إلا الله » وذهب كل ماعداه   فابتهج أيها العشق فقد أحرقت الشرك بشدة

راجع تاريخ التصوف فى الإسلام لقاسم غنى ، ترجمة صادق نشأت ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٣م جـ١ ص . ٤٦٦ .

يقول نفس الصوفى العظيم . عندما أقول الظلام فإننى أقصد نقص المعرفة .... ولهذا السبب لم نطلق عليها اسم سحابة الهواء ، إنما سميناها سحابة عدم المعرفة التى تقف بينك وبين ربك »

إن عمل المتأمل . هو أن يدخل إلى هذه السحابة التى يسميها وولتر هلتون « Hilton » الظلام الطيب « Good dark » - إن الكف المقصود المتعمد ورفض هذه الصور والتى تجد مكانا لها فى صلاة الهدوء ، هو أحد الطرق التى يكون فيها هذا المدخل مؤثرا » فالاستسلام الشخصى ونكران الذات هو مدخل آخر .

فالشخص الذى يستطيع أن يدخل إلى العدمية Nothingness أو أرض الروح عن طريق الانفصال عن العالم والانطواء ، يدخل أيضا إلى الظلام ، أو إلى الحالة التى تبدو بسيطة بدرجة كافية لكى يحاول أن يدرك ماذا تعنى .

. وكما يقول أحد الأتباع من تلاميذ بوهمه Boehme الحيارى فى محاوراته - هل تخلو هذه الأرض الجرداء من أى أثر للنفس أو من كل نفس ؟ وكيف استطيع أن آتى إلي هذه الدائرة الغير مرئية حيث يعيش الله وليس الإنسان؟

أخبرنى بوضوح أيها السيد المحب - أين توجد - وكيف يمكن أن توجد منى . وكيف أدخل إليها ؟.

ويرد الأستاذ قائلا هناك تجدها ، حيث أغتالت النفس إرادتها وتخلصت منها ولم يبق منها أى شيئ [1] .

فيقول التلميذ لكن كيف أفهم ذلك وأدركه ؟

يقول الأستاذ ، إنك لوحاولت أن تفهمها بالذهاب إليها فإنها ستطير هاربة

---

(١) راجع المحاورات الثلاث للحياة التى تسمو على الحواس (حياة الحواس الفائقة)
Boehme ; Three Dialgues of Supersensual Life P. 71 .
ونحن نلاحظ أن خروج الإنسان عن نفسه والتخلص منها فى طريق الوصول إلى الله ومعرفته أمر مشترك بين صوفية المسلمين سواء كان هذاا عند الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة أو المتفلسفة منهم - يقول القونوى مثلا « إذا فنى العبد عن أنانيته ، وآنيته ، وإضافه الوجود إلى نفسه يتجلى الحق له بالذات المطلقة » راجع صدر الدين القونوى ، شرح الحديث الأربعين النبوى القاهرة ١٣٣٤هـ راجع أيضا عبد الكريم الجيلى ، الانسان الكامل ، القاهرة ١٩٧٠ م ، جـ٢ ، ص ٦٠ .

منك . لكنك لو استسلمت كلية لها فستبقى معك وترتبط بك ، وتصبح حياتها حياتك . وتصبح رمزاً طبيعيا لك ؟

إن مؤلف « سحابة المجهول قد أوضح مفهوم الظلام والإضطراب الذى يطغى على النفس بصفة خاصة عندما تدخل إلى الظلام لأول مرة ، وتكون هذه الحالة مشابهة لعملية فناء الفكر وإستغراقه فى إهتماماته بعملية الاستقبال السلبى التى تحدثنا عنها ودرسناها فيما يعرف « بالسكون » .

وكما يقول أحد المتأملين « فى أول مرة تفعل ذلك تجد نفسك فى الظلام لأنك تخطو أول خطوة غامضة فى التأمل « إنك لاتجد شيىء سوى الظلام » ولأن هذه سحابة عدم المعرفة فإنك لاتعرف ، إلا أنك تشعر فى داخلك بأنك تقصد الله ، فهذه الظلمة وتلك السحابة مهما فعلت فإنها بينك وبين ربك واعلم أنك لن تراه بوضوح بواسطة نور العقل أو نور الفهم العقلى . وأنت لن تشعر بحلاوة الحب فى عاطفتك الخاصة . وتخيل أنك ستبقى مترقبا لذلك الظلام لأطول مدة وحتى ولو صرخت وراءه مراراً بأنك تحبه . لأنه إذا شعرت بالرب أو رأيته كما هو الحال هنا فإنه سيكون دائما فى هذه السحابةوفى هذا الظلام .

وهناك شهادة أخرى بالنسبة للقيمة السامية للتأمل المظلم للمقدس تأتى من قرن آخر ومن منطقة مختلفة المزاج . هذا الذوبان فى مادة الكون هو فوق مستوى الفكر أو العاطفة . أنه أحد الصور الحيوية لهذا الشكل الغريب .

من الإدراك الذى نمتلكه ، ويستحق المقارنة بعبارة « سحابة عدم المعرفة » عند « القديس يوحنا الصليبى» ونحن ندين بهذا إلي هذه الشخصية البارزة للقديسه المباركة « إنجلا angela » التي تحولت من حياة دنيويه لتصبح ليس فقط فرنسسكانية ولكن أيضا صوفية أفلوطونية . وفيها نحن نسمع صوت أفلوطين يتحدث من وادى سبوليتو vale of spoleto ـ تقول سكرتيرتها عندما كنت أسألها كانت تبدو أخلص تابع للمسيح وتحولت إلى روح فجأة وبدا أنها لم تعد تفهمنى ، وبعد ذلك غشاها نوع من القدسية ثم بدأت تخبرنى بعد فترة قصيرة عما حدث لها فى هذه الحالة قالت « لقد تعرضت روحى لحالة تذوقت فيها سعادة لايمكن أن توصف ، عرفت كل ماأريد أن أعرف وتملكت كل ما أريد أن أمتلكه .... رأيت الخير كله » ثم قالت « في هذه الحالة لايمكن للروح أن

تصدق بأن هذا الخير سوف يرحل عنها أو أنها سترحل عنه ، أو أنها ستنفصل عنه ثانية ، ولكنها يمكن أن تمتع نفسها بهذا الخير المطلق .

لم تر روحى شيىء يمكن الكلام عنه بالشفاه أو بالقلب ... لم تر شيئا مطلقا وإنما رأت كل شيىء she sees nothing and she sees All..... إنه خير لايمكن وصفه أو تصوره وهو الأن مقصد أملى ، فقد وضعت كل أملى فى ذلك الخير .

لقد شاهدت الباطن السرى - معظمه خفى وسرى ويغلفه ظلام شديد ، ولقد حاول أحد الأخـوة المسيحيون المخلصون أن يصفوا هذا الظلام فلم يستطع كما حدث لى - لكنه قال إذا كنت أرى هذا فى الظلام فإن هذا يحدث لأنه ظلام يفوق كل خير . لاشيىء يتبقى من « الكل » أو من كل شيء سوى الظلام الكل الذى يمكن للروح أو القلب أن يصل اليه يتضاء ل بجانب هذا الخير . إن هذا هو كل ماقلته حتى الأن ، إن كل ماتصل إليه الروح أو تفهمه عندما ترى كل المخلوقات مليء بالله . عندما ترى القوة المقدسة - وعندما ترى الإرادة المقدسة أمر يتضاءل بجانب هذا الخير الخفى ، لأن هذا الخير الذى أشاهده فى الظلام هو كل واحد وكل ماعداه أجزاء - وأضافت « بالرغم من عدم إمكانية التعبير . فإن هذه الأشياء الأخرى تجلب البهجة ، لكن رؤية « الله » فى الظلام لاتجلب أى نوع من الابتسامه على الشفاه ، ولا تضحية أوفضل من الحب للروح ... فكل مالايحصى ومالا يمكن التعبير عنه من الفضل الالهى قد حدث لى ، كل الكلمات قالها لى ، وكل ماكتبت أنت قد عرفته تحت هذا الخبر ، ثم أننى أرى فى هذا الظلام العظيم أننى لم أتواجد بالفعل وإنما بالأمل .

ولقد حاولت أحد الأخوات المسيحيات المخلصات أن تخبرنى أن عقلها قد رفع ثلاث مرات إلى مثل هذه الحالة العالية الغير قابلة للوصف والتى فيها تشاهد الله فى هذا الظلام الدامس ، وفى رؤية رائعة وكاملة . وبالتأكيد فقد شاهدت الخير المطلق الذى لاتحصى أوقاته ودائما مظلم ، مع ذلك فإن هذا لم يحدث فى مثل هذا السلوك السامى وخلال هذا الظلام الشديد .

إن هذه الكلمات وكل الفكره التى تكمن فى قاع « التأمل المظلم » قد تفهم أفضل فى ضوء أعمال بارون وهيجل baron - von hugel ذات المعانى

العميقة« إن الأرواح المحبة لله فى شخصيته اللامتناهية سوف تحبه حقا بتفوق على الفهم العقلى له ، إن عنصر التفانى فى الثقة ، والعطاء الحر للنفس وتفانيها فى الله لا يعرف إلا من خلال مثل هذا العمل ـ وهكذا يبقى الانسان إلى الأبد ، ومن ثم فإن العمل التأملى الذى هو فى ذاته سلوك من الحب ونسيان الذات يركز على المقدس ـ أو هو إنطلاق شخصية الإنسان المحدودة الصغير لتصب فى شخصية المطلق أو فى شخصية « الله » ، وهو يتعدى الفكر والظلام المتواضع للعقل ، وقد يعنى هذا تألقا للقلب من الناحية النفسية ، وهى تعنى نضوب الوعى السطحى ، واستقرار ميكانيكية الفكر فيما يتعلق باهتمامات أحد المراكز الواعية الأخرى ـ وطالما أن هذا المركز الجديد يتطلب متطلبات هائلة من مخزون النفس من الحيوية فيجب أن يتضمن ـ فى وقت نشاطها ـ أن يستمد طاقتها من مراكز أخرى ، وهكذا يكون « ليل الفكر» night of thought هو النتيجة المنطقية « لنور الادراك »

لا أحد قد عبر عن مثل هذه الشخصية المزدوجة للظلام المقدس عن عدميته بالنسبة لسكين العقل القاطع وإثماره السامى بالنسبة للحب النشط الممتد مع هذه البصيرة Insight [1] الرقيقة ـ للقديس « يوحنا الصليبى »

وفى أحد أعماله تظهر اللمسة المسيحية للبهجة الشخصية والمعنى الدقيق والأوصاف المحكمة لصوفية الأفلاطونية المحدثه Neoplatonic ـ إنه شاعر عظيم وفى نفس الوقت صوفى عظيم ـ وفى قصيدته عن الليلة الغامضة Obscure Night يخوض التجربة الحقيقية الغير قابلة للوصف للروح التى تنطوى على كل الطاقات السامية للتعبير الفنى ، وكل مصادر الايقاع الصوفى ، وكذلك خصائص اللغة الاستعارية .

---

(١) يلاحظ هنا إعتقاد الصوفى أن العقل لايقوى على المشاهدات السامية لأنها بالنسبة له تكون معدومة غير موجودة ، لذلك كان الأمر متعلقا بالبصيرة فهى وحدها القادرة على العمل فى هذا الظلام المضىء على حد تعبير أندرهل ،

والبصيرة كما يقول الجرجانى قوة للتغلب المنور بنور القدس ، يرى بها صور الأشياء وظواهرها وهى التى يسميها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية .

راجع على بن محمد بن على الحسينى الجرجانى ، التعريفات القاهرة ١٩٣٨م ، مادة البصيرة .

يقول في قصيدته :

وفي ليلة غامضة محمومة بشغف الحب .
آه ، أيها الوعد السعيد ، سيىء الطالع !
ذهبت حيث لا أحد يراني .
بعيداً عن منزلي حيث كل الأشياء هادئه .
وبالليل آمنا من أن يراني أحد .
وعن طريق سلم خفي خرجت متنكرا من منزلي وحيداً.
آه أيها الوعد السعيد سيىء الطالع . ؟
وليلا وحيداً و سراً بعيداً عن منزلي .
حيث كل الاشياء هادئه .
تجولت في تلك الليلة المباركة .
في السر حيث لايراني أحد .
وحيث لا أرى شيىء.
وبدون نور يرشدني.
فيما عدا ذلك النور في قلبي يلتهب في جنبي.
إن هذا الضوء يقودني باستمرار .
وبتأكيد أكثر من ضوء أشعة الظهيرة.
إلى حيث عرفت جيداً ذلك الواحد .
الذي سمح لي بالقدوم حيث.
لم يسمح لأحد لكنه هو الذي سمح.
آه أيتها الليلة الجميلة التي قادتني هكذا .
آه أيها الليل البديع المشع لضياء أكثر من ضوء الفجر .
آه أيتها الليلة التي أتت بنا .
كي يرى المحب المحب .
المحب المحبوب يحب في تزاوج الضياء .
وعلى صدري المزدهر.
ولأجله وفيما عداه ليس لأحد هناك الراحة الحلوة .
إلى محبوبي الواحد .

حيث يمكن أن أتنفس هواء رفرفة عصافير الأرز [1]

ويعلق على هذه القصيدة بقوله .

لاحظ أنه فى هذه الأبيات الشعرية خيال شخصى وميتافزيقى ، حيث يسهم كل بخصائصة فى حدوث تأثير كلىّ يوصل إلينا بطريقة ما ولكن لاندرى كيف ؟ لهيب البهجة الغامضة عند المتصوف ، وتأكيد حبه المشتعل وسلبيته المصاحبة لظلامه العقلى وسكونه وكذلك الوعد السعيد سيىء الطالع hapless happy plight فالكل هنا : سر تأمل الحياة الحقيقية التى لاترى للاخرين ، وهجرة العمدى النشط لمنزله المريح الخاص بالحواس ، وكذلك خطة الوجود المظلمة التى تنغمس فيها الروح « إنها ليلة أجمل ضياء » من ضياء الفجر «إنه الضوء الداخلى الذى ينير باطن الصوفى » ويرشد خطواته . وهو ضوء وهاج أكثر تألقا من ضوء الظهيرة : حيث تعطى النفس ذاتها وتستهلك فى عملية النشوة بالإستهلاك فى الرب ، فيه نفسه وليس فى سواه . حيث يحصل المحب على الاتحاد مع المحبوب فى زواج البهجة والفرحة .

وفى كتابه المسمى « ليلة الروح المظلمة the dark night of the soul » يقول القديس يوحنا » معلقا على هذه القصيدة فى مقطوعات من بين أجمل وأعظم الأوصاف لسيكلوجية التأمل التى نمتلكها ،

يقول : يسمى التأمل المظلم الذى به تصعد الروح إلى إتحاد الحب ، إنه سلم خفى وهذا راجع إلى خاصيتين لهذا التأمل سوف أوضحهما بانفصال .

أولا يسمى التأمل المظلم سريا

وهذا لأن اللاهيتون المسيحيون يسمونه الحكمة السرية والذى يتوغل فى الروح بالحب كما يقول القديس توماس Thomas ، وهذا يحدث بطريقه خفية لايكون فيها لعملية الفهم الطبيعية أو للقوى الأخرى أى دور فيها أو نصيب ، ولاتستطيع النفس أن ترى أو تطلق عليها اسما كما لاترغب فى ذلك ،

---

(١) عصفور الأرز Cedar طائر أمريكى صغير . جميل الشكل وأشبه بعصفور الجنة راجع القاموس المورد . مادة Cedar وقد نقلت القصيدة إلى الانجليزية بواسطة آرثر سيمون Arthur Symons ونشرت ضمن قصائده المنشوره بعنوان Collected Poems فى الجزء الثانى من أعماله.

وبالإضافة إلى ذلك لايمكن إيجاد طريقة للمقارنة بواسطتها تعرف معرفة عالية جدا ، اذ تعد انطباعا روحيا رقيقا جداً وغامضا . حتى ولو شعرت الروح برغبة فى الافصاح عن نفسها ومهما تراكمت التفصيلات يظل السرى سريا . ذلك أن الحكمة الداخلية بسيطة عامة وروحية لدرجة أنها لاتدخل إلى حيز الفهم فى أى شكل تتنكر فيه أو أى صورة يمكن تصورها للحواس . لهذا السبب فإن الحواس والخيال الذى عمل كوسيط ولم يتصور أى شكل حسى أو لون لايمكن أن تحصى عليه أو تأخذ منه أى مفهوم له كى تتحدث عنه : بالرغم من أن الروح تكون واعيه بوضوح أنها تشعر وتتذوق هذه الحكمة الغريبة .

ثانيا : يسمى التأمل سريا :

لأن الروح مثل الإنسان الذى يرى شيئا لأول مرة ؛ شيئ لم يره من قبل مطلقا ، فهو يتصوره ويفهمه مع ذلك لايمكنه أن يقول ماهو ، أو أن يعطيه اسما ، أو يغفل مايريد بالرغم من أنه شيء يمكن التعرف عليه بواسطة الحواس أحيانا . كم تكون إمكانية الوصف قليلة ولايمكن الدخول إليها بالحواس . فعدم القابلية للتعبير عنها هو أحد خواصها وطبائعها وكما قلنا من قبل فإنها تسمى سراً ومع ذلك سميت بذلك . لأن هذه الحكمة الصوفية لها خاصة احتواء الروح بداخلها . ذلك أنه إلى جانب عملياتها العادية فإنه يحدث أحيانا أن هذه الحكمة تمتص الروح وتغوص بها فى هاوية سرية حيث ترى نفسها هناك بوضوح كما لوكانت بعيدة جداً ومنفصلة عن كل الأشياء المخلوقة . أن الروح تنظر إلى نفسها كما لو كانت واحدة موضوعة فى عزلة عميقة وواسعة حيث لايمكن أن يأتى إليها مخلوق والتى تبدو بريه واسعة ليس لها حدود . وهذه العزلة Solitude [1] هى ذلك الخواء الذى كلما إزداد عمقا كلما إزداد حلاوة وعذوبة وجمالا . وهناك كلما كانت الروح أكثر خفاءاً كلما كانت مرتفعة فوق كل المخلوقات .

---

(١) العزلة : هى الخروج من مخالطة الخلق بالأنزواء والإنقطاع .

راجع التعريفات للجرجانى مادة عزلة « وأما » و « الخلوة » فهى محادثه السر مع الحق حيث لاأحد ولا ملك . يعنى انصراف كامل عن المخلوقات (نفس المصدر) مادة الخلوة والعزلة فى نظر بعض الفلاسفة تعد حالة عليا من حالات الأنا يكون الانفصال فيها عن الروتين الاجتماعى اليومى للعالم الوضيع ، وهذا الانفصال مرحلة من مراحل نمو الإنسان الروحى وهذا التجرد من الحياة اليومية هو بقصد وجود أكثر عمقا وأشد أصالة . راجع نيوقولاى برديانف ، العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، الهيئة للكتاب ١٩٨٢م .

هذه الهاوية الحكيمة أو تلك الحكمة الخفية ترفع نفسها إلى أعلى وتكبر الروح وتعطيها من الشراب مايجعلها تصل الى أعماق علم الحب . وهناك تدرك النفس كما تكون ضئيلة وحالة كل المخلوقات إذا ماقورنت بالمعرفة السامية ومعنى المقدس . أنها تفهم أيضا فهما ضئيلا ومنخفضا وناقصا وبمعنى محدد غير مناسب من حيث التعبيرأو الكلمة التى بها نناقش الأشياء المقدسة ، التى تهرب من كل جهد بشرى سواء كان ذلك فى مجال الفن أو مجال العلم ، ولايمكن أن يتذوقها إلا علم اللاهوت الصوفى الذى يعرفها فى حقيقتها (١).

وفى هذه القطعة الهامة نجد توافقا بين الصور الأربع الرئيسية التى ينطوى تحت لوائها وصف التأمل وهى الظلام والنور ، البرارى وإتحاد الحب: وبعبارة أخرى هذا التناقض الظاهرى الناتج عن احساس النفس بالجهل الذى يعد معرفة سامية وعزلة تعد صحية وثيقة . وفى نهاية هذا الطباق فإن الصحراء أو البرية إزاما إزدادت حلاوة وأبداعا وعذوبة كلما إزدادت عمقا وإتساعا وخواءا . إننى لايمكننى أن أقاوم النص الجميل ذو اللغة الجميلة المعبرة لذلك المتصوف الأسبانى الذى يدعى ريتشارد رول richard Rolle حيث يقول فى لغة بسيطة ـ فى هذه الصحراء ... يتحدث المحبوب إلى قلب المحب كما لوكان محبا خجولا إلا أن قلبه لايتوسل أو يخضع ، كما لايكون حكيما ودودا أو صديقا وإنما كغريب أو كشخص عام يطبع قبله .

ترحل هذه الروح الورعة عن كل مافى الدنيا من أعمال ومشاعر جسديه وفى الحال تستقيل الفرحة أو السعادة السماوية .. تصنع لحنا رائعا . يتفجر من

ص ٩٤

(١) راجع أعمال يوحنا الصليبى بعنوان Noche Escuradel Alama حيث يطبق يوحنا صورة الظلام على ثلاث أشياء مختلفة تماما .

أ ـ حالة الطهارة العقلية التى يسميها الحس

ب ـ التأمل المظلم أو (الظلام المقدس) عند ديوسوس

جـ ـ وليلة الروح المظلمة ظلاما حقيقيا والتى يسميها « ليلة الروح » والنتيجة هى نوع من الفوضى العظيمة عند كتاب التصوف المحدثين عندما يصفون موضوع « الليلة السوداء »

راجع أيضا
A Study in the nature and development of man's Spirtual Consciousness , P.354 .

أجلها فتفهم رموزه .. ثم لاتعانى بعد ذلك أثار الصوت الدنيوى ذلك تفهمه وحدها ، لأنه مجهول بالنسبة للجميع من المهتمين بأمور العالم ومشاغله سواء كان هذا الإنشغال قانونيا أو خارجا على القانون ـ إنه لاأحد هناك قد علم هذا لكنه فقط ذلك الذى إهتم بدراسة الاله ويلتفت إليه .

ومما لاشك فيه أن « الظلام السامى » الذى يتحدث عنه كل المتصوفه من أتباع النمط « الديونوسى » « Dionysian » هو أقرب صدقا إلى كل مانفهمه عن الله ، بالرغم من أنه قد يكون حقيقيا من حيث المعنى المتناقض الذى قد يستخدم خصائص السلب ـ كالظلام الذى يحوى فى حقيقته ذلك النور العظيم ـ وكاللغه التى كلما إقتربت من المطلق كلما بعدت عنا فإذا لم يراعى الحذر فى استخدامها فإن كل عناصر الزيف قد تحوى فى ثناياها عناصر كل شيىء آخر .

إن الانسان ليس روحا خالصا بعد ، لذلك لم يحصل على الأزلى Eternal ـ إنه فى الطريق إلى الأزلى لكنه أبداً لن يصل . لو أصر هواة الحقيقة على قطع الطريق تحت قدميه . ومثل « دانتى » الذى يريد سلما يصعد به إلى النجوم سلما يجتاز به المسافة بين البشريه والأولوهية لذلك يجب أن يكون الوصف الفلسفى لذلك التناقض متوازنا كما يظهر عند القديس « يوحنا الصليبى » بواسطه إثباتات الحب الشخصية ، الإنسانية والرمزيه التى تمكنه من تجنب اللمحة المحرفة عن الحقيقة التى يحصل عليها المتأمل فى الطريق إلى الله .

وهكذا يحصل الوعى على المساعدة على عبور الهوة الواسعة التى تفصله عن منزله أو وطنه . إن البريه الموحشه ، والهوة السحيقة يجب أن تكون مأهولة بصوت المحب الذى لايتوسل قلبه إلى البشرية وكما تعلم تقريبا كيف تكون صورة إتصالنا بالمطلق التى تمثل فى الواقع أحد جوانب التجربة التأملية التى تنفذ من أحكام ودائرة الفكر الميتافيزقى .

ويلخص بليك الموقف Blake فى قصيدة صوفية نافذة كما لو كان بين شكلين جادين من أشكال التأمل عندما يقول.

إن الله يظهر ، والله هو النور [1]
يظهر لهذه الأرواح الفقيرة الممتزجة فى الظلام
لكنه يظهر فى شكل بشرى
لهؤلاء المنشغلون بضوء النهار

ويتلقى هؤلاء المتأملون فيما يعرف « بصلاة الاتحاد »أو فى« الزواج الروحى » مثل هذه الالهامات من النوع البشرى ذلك الالهام الذى تصل به العقيدة المسيحية إلى نقطة الحلول ، أنهم يفهمون الناحية الشخصية والعاطفية فى حياة المطلق كما أن الحب يُلمع فى الحال ويتحدد ليسع كل المطالب وكل ماهو متروك ويلعب دور التنوير بينه وبين الروح التواقه .

لقد قلت لى حبى الوحيد أنك أنت نفسك الذى صنعته لى ، وأن كل هذا كان أنا ، ومع كل هذا كنت مع كل النعيم ، لدرجه أننى كنت كل شيىء بالأحوى . ثم أنك أنت سوف تعطينى الكل ، وأنت الذى أعطيتنى هذا الاسم وعند هذه الكلمات سمعت فى داخلى . dedi te in Lucen gentium ليس بدون العقل . وهنا يبدو وكأنى قد تعلقت باللاشيئ فيما عدا « الاتحاد » النقى الخالص ، وبدون أى معنى متعلق بهذه الرؤية التى أعطاها لى « الأنت » لذلك فقد قلت لك : إن هذه الأشياء الأخرى تعطيها لمن ترغب أنت وتعطينى فى الغالب ذلك ذلك .

الاتحاد الخالص معك والمتحرر من كل الوسائل ويصيح رويـــــــــزروك « Ruysbroeck » « إن عملنا هوحب الله - إن رضانا يكمن فى طاعتنا وإذعاتنا للعناق المقدس . وهذا الاذعان للعناق المقدس هو جوهر هذا النوع من

---

(١) « النور » هو صفة من صفات الله التى تظهر فى كثير من أقوال المتصوفة والرهبان فى الفكر المسيحى وهى أصيلة فى الفكر الإسلامى حيث يصف الحق نوره بقوله الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درىّ ..... الآية ٣٤ من سورة النور . وقد أفرد الغزالى رسالة كاملة لوصف المشكاة والنور الالهى الذى يصفه بالنور الكلى الذى ينكشف به وله ومنه . كل الأشياء وليس فوقه نور منه إقتباسه واستمداده : بل ذلك له فى ذاته من ذاته لذاته لامن غيره ..وهو النور الأول »

راجع الغزالى ، مشكاة الأنوار ، تحقيق د. أبو العلا عفيفى القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٥٩

التأمل الذى يسمى « صلاة الاتحاد » ، والاستسلام هو سره ـ إنه إستسلام شخصى ـ ليس فقط من جانب المحدود فى المطلق ، ولكن من العريس للعروس ، ومن قلب الى قلب (من قلب المحدود إلى قلب اللامحدود) .

هذا الاستسلام عند المتأملين ذو المزاج المعتدل هى نوع من الجذب والنشوة الكاملة ، وهو نوع مشتمل على قدر قل أو كثر من الحرمان الكامل من الوعى السوى ـ إنه مدخل أو معبر إلى الحد الذى يفصل التأمل عن النشوة الحقيقية المصاحبة للتأثيرات النفسية والجسدية . وفى هذه الحالة تقول القديسة تريـــــزا « لايوجد معنى لأى شيىء » فقط يوجد الاخصاب الاثمار Fruition دون فهم لما يمكن أن يكون عليه الاثمار وما ينتج الاثمار ، إنه من المفهوم أن الاثمار ذات خير محدد ، يحوى فى نفسه كل الخير معا وفى نفس الوقت ـ لكن هذا الخير غير مفهوم .

إن الحواس كلها مشغولة بهذا النوع من الإخصاب لدرجه أنه لاتوجد حاسه من هذاه الحواس تكون حرة كى تتقدم نحو أى شيىء آخر أو تشعر بشىء آخر سواء كان داخليا أو خارجيا . فقط تبقى هذه الحالة من الامتصاص الكلى complete absorption مع البقية التى تحدثنا عنها من الخيال .

ـ ذلك أنى أعتقد أن الخيال يستمر فى حالات الاسترخاء لوقت قصير بالرغم من أن هذه الملكات لا تشفى نفسها كلية ـ من الفوضى لأنها تستمر لبعض الوقت كما لوكانت فى حالة تشتت .

إن الذى خاض هذه التجربه سوف يفهمها إلي حدما ، لأنها لايمكن أن توصف بوضوح لأن مايحل محلها بعد ذلك هو شيء غير واضح . وكل ما أنا قادر علي قوله الآن أن الروح تكون أقرب ماتكون إلى الله وأنها ترتبط باعتقاد راسخ وإيمان كبير لدرجة أنها لايمكن أن نكشف عن هذا الاعتقاد .

وتفشل كل الملكات الآن فى العمل وتتوقف كل عملياتها كما قلت سابقا ، ولايمكن أن تتبع آثارها . لأن الارادة تكون مشغولة بالحب لكنها لاتفهم كيف تحب . إن الفهم لايفهم ـ كيف تفهم هذا إن كان هناك فهم . ويبدولى أنها لاتفهم لأن المسألة كما سبق أن ذكرت لايمكن أن تفهم .

وبوضوح فإن الموقف النفسى هنا هو نفس الشيىء كما فى حالة التصوف اللاشخصى ، فهذا النوع الأخير من المتصوفة يشعرون وكأن أنفسهم مغلفة بسحابه عدم المعرفة أو مايسمى الظلام المقدس Divine Dark

تقول القديسة تريزا فى موضع آخر « لاتتخيل هذه الصلاة كتلك التى سبقت من قبل « صلاة السكينة » نوع من النعاس drowsiness ـ وأنا أسميها نعاس لأن الروح تبدو كما لوكانت هاجعة ، بمعنى أنها ليست نائمة تماما وليست متيقظة تماما ، وفى صلاة الاتحاد تكون الروح نائمة ـ النوم السريع المتعلق بنفسها والمتعلق بالعالم الطبيعى أيضا .

وفى الحقيقة فإنه خلال الوقت القصير الذى تستمر فيه هذه الحاله تتجرد من كل إحساس ، بالرغم من أنها قد تكون راغبه فيه ـ إنها لاتفكر فى شيىء كما لا تستطيع .

وهكذا فإنها لاتحتاج أى جهد من أجل إيقاف الفكر ولو مؤقتا ـ ولو أن الروح استطاعت أن تحب ، فهى لاتعرف كيف وأين تحب ، ولا ماترغب فيه ... إنها ميته كليه بالنسبة للعالم . ومن الأفضل أن تحيا فى الله .

وقد يتساءل البعض ـ كيف يختلف هذا النوع من التأمل عن ذلك النوع من اللاوعى ـ إن الاختلاف كماتراه القديسة « تريزا » ينطوى على بعض الحالات المحددة التى تأخذ مكانها أثناء هذه الحالة من الوعى السطحى « حاله » يصبح الوعى السطحى واعيا بها عندما يستيقظ .

إن التأمل الحقيقى كما يؤكد المتصوفة دائما يجب الحكم عليه مــــــن « ثماره » [1] لو أن عملا تم خلال الحالة السلبية للروح .

وكلما تعمقت النفس هربا كلما إرتفعت إلى الحرية وبذلك تتحول إلى شيىء آخر غير الذى كانت عليه من قبل .

---

(١) هذه فكرة الجلية برجمانية فى نفس الوقت حيث يسود اعتقاد لدى جون ديوى أن الشيىء أو الفكرة لاتعرف إلامن خلال ثمارها أو كما يقول الانجيل « من ثمارهم تعرفونهم »
By their friuts shallye know them.
J . Dewey ; Reconstruction in philosophy; New york :1948 . P. 156 .
راجع د. زكريا ابراهيم (الدكتور) دراسات فى الفلسفة المعاصرة الجزء الأول ، ص ٧٢ .

ويجب أن نتذكر أن « تريزا » تتحدث من خلال خبرتها وأن غرابة أفكارها تحدد نوع الخبرة التى تتحدث عنها .

إن الروح كما تقول هذه القديسة لاترى ولاتسمع ولاتفهم أى شيء أثناء هذه الحالة والتى تبدو أقصر من حقيقتها بالنسبة للروح .

إن الرب يزور الروح التى تمنع شكلها ـ وعندما تعود الى نفسها تدرك أنها كانت فى الرب وأن الرب كان فيها ـ وهكذا تكون مقتنعة بشدة بهذه الحقيقة بالرغم من مرور السنين قبل أن تتكرر هذه الحالة . فإن الروح لايمكن أن تنساها مطلقا كما لايمكن أن تشك فى حقيقتها .. لكنك سوف تقول ... كيف يمكن أن ترى الروح وتفهم أنها فى الله ؟

أنا أجيب على هذا بأنها لاترى هذا فى حينه وإنما تراه فيما بعد وتفهمه وتتصوره بدقه ليس بواسطة الرؤية ، وإنما ليقين Certitude يبقى فى القلب لايمنحه إلا الله ، فهى هبة وليست كسبا بمحض عمل الانسان وإنما بواسطة إختيار إلهــى وإصطفاء .

الخاتمة

تطلعنا هذه الدراسة على نتائج هامة يمكن أن تكون أساسا فى نظرة الباحثين إلى حقائق النفس الصوفية .

١ ـ فالمتصوف من وجهة نظر هذه الدراسة هو ذلك الرجل الكامل الذى تعمل جميع قواه الكامنة وحيث تبقى معظم قوى الادراك الباطن لدى العاديين من البشر معطلة ونائمة .

٢ ـ وإذ تعمل قوى الصوفى في تكامل فإنه يكون متأهبا للسير فى طريق كماله الروحى الذى يمر على سلم صاعد ذو درجات ثلاث أو دعائم ثلاث هى القلب ، والعقل والإرادة ، أو العاطفه والفكر والنزوع .

٣ ـ ومما قد يشير إلى أن هذه القوى ليست قاصرة على الصوفى فان أندرهل تعتقد أن كل من الصوفى والفنان والعبقرى يشتركون فيها وأنها توجد لدى هؤلاء كامنه تحت مستوى الشعور ، ويفجرها ذلك النوع من التأمـل والتركيز .

٤ ـ والعلاقة بين الإنسان والمطلق رهن بتخلص هذه القوى من العالم ، ونسيانه تماما والاستعداد لتلقى الفيض المقدس الذى لايتم الا فى لحظة .. من لحظات الصمت الذى يفسح مجالا للحديث مع الله أو أن الانسان يصمت ليتكلم الرب .

٥ ـ وفي مثل هذا النوع من الصمت يظل العقل الواعى سلبيا

٦ ـ ولكى تتصل بالمطلق فلابد أن فى الإنسان مايمكنه من الإتصال بالأزلية والأبدية إلى جانب الاتصال بالمكان والزمان ـ لهذا نرى أندرهل أنه لابد من وجود مثل هذه الخواص الروحية التى تحمل صفات الاطلاق والوجود .

٧ ـ لذلك يعد تركيب عقل المتصوف والفنان والعبقرى تركيبا غريبا يسمح بتركيز الكون تركيزاً شديداً بحيث تبدو الصور الأخرى مهزوزه وغير حقيقية

٨ ـ وهناك خاصتين أساسيتين يتميز بهما نوع الادراك الصوفى الناتج عن التأمل ، وهما كليه الموضوع ، ثم اندماج النفس فى موضوع التأمل

٩ ـ تتميز الخبرة الصوفية بحالة من العجز يستشعرها الصوفى عندما يحاول وصف مشاهداته للغير لأنها مما لايقبل الوصف ، وكل مايمكنه عمله هو التفوه بألفاظ غريبة تحمل شحنات نفسية وعاطفية من أمثال الظلام المتوهج ـ الهوة السحيقه ـ سحابة عدم المعرفة ـ احتضان المحبوب وهى رموز لها مايبررها عند أصحابها .

١٠ ـ لايمكن إعتبار التأمل حالة من حالات الاحساس الكامن ليسبق الاحساس أو يصاحبه لكنه شيىء ذو صدق موضوعى مصحوب بنوع آخر من الإحساس الفائق أو السامى المكون من خليط من العواطف ، كالخوف ، والدهشة والرغبة ، والفرح .

١١ ـ إن دخول أرض المقدس هو دخول إلى الأبدية حيث لاأين ولازمان .

١٢ ـ فى أرض المقدس تتوحد الأشياء ، فيصبح النور والظلام ولافرق بينهما ، كما تصبح المعرفة والجهل أمراً واحداً .

١٣ ـ إن إدراك النور الذي يضيىء قلب المتصوف المدرب هو أمر صعب المنال بالنسبة للعاديين من البشر إذ قد يتحول إلى ظلمه فى قلوبهم .

١٤ ـ إن إدراك المقدس هو دخول إلى « سحابة عدم المعرفة » أو هو دخول للظلام المقدس » وهو أمر مرتبط بالتخلص من قوى النفس ، كما أنه ليس مطارده للمقدس وإنما استسلام له .

١٥ ـ ويجمع معظم القديسين والرهبان والفلاسفة من أمثال « يوحنا الصليبى » و« ولترهلتون» « ڤون هيجل» على أن الحب وليس العقل هو الذى يساعد على ادراك الله ـ وهذا يشير إلى تألق « القلب» وإظلام « العقل» .

١٦ ـ وتأخذ هذه الدراسة بوجهة النظر الانجلية التى ترى أن الأشياء لاتعرف إلا بثمارها ـ فالتأمل هنا يأخذ قيمته من الثمار التى يثمرها والنتائج التى يتمخض عنها .

تم بحمد الله

قاموس المصطلح

Apex	النقطة التى تلامس السماء
Abyss	الهـوة السحيقة
Awe	خشــيـة
Conation	رغبــة
Cognition	معـرفة (تعرف)
Contemplative Genius	عبقرية متأملة
Contemplation	التــأمل
Cherbus	ملائكة الشاروبيم (كلها عقل)
The cloud of unknowing	سحابة عدم المعرفة
The Cosmic life	الحياة الكونيــة
Ecastasy	النشــوة
External Light	النور الأزلى
Fleshly idleness	البطالة الجسدية
Hypnotism	التنــويم
Incarnational	حـلولى
Insomnia	أرق
Infatuation	أفتتـــان
Mono ideism	مذهب الحوار الفردى
Manifestation	التجـــلى
Multiplicity	التعـدد ، الكثرة
Marriage of delight	زواج البهــجة
Mystical Marriage of soul	الزواج الصوفى للروح
Psycho - Physical Phenomena	الظواهر النفسجسدية
Penetrating Insight	البصيرة النافذة

Recollection	الذكــر
Rational	عقــلانى
Rapturous	إنتشــائى
Revelation	إلهـــام
The Spiritual Self	النفس الروحية
Senteresis	الحافظ لوجوده
The Spark of Soul	ومبض الـروح
Seraphs	ملائكة السيرافيم (كلها حب)
Supersensual	فائــق للحــس
Synteresis	الحفاظ لبقائه ووجوده
Supra Sensible Reality	الحقيقة الفائقة للحس
The State of innibilation	حال الفنــاء
Transcendental Sense	الحاسـه الفائقــه
Timeless Being	القوة الأبديــه
Trinit arian	التثليــث

المراجع

أولا : المصادر العربية

١ ـ أحمد فائق « الدكتور » :

جنون الفصام ، دار المعارف ١٩٦٠ م .

٢ ـ ابن سينا :

الشفاء، تحقيق جورج شحاته قنواتي وسعيد زيدان الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٥ م

٣ ـ أبو حامد الغزالي :

مشكاة الأنوار ، تحقيق الدكتور أبوالعلا عفيفي ، القاهرة ١٩٦٤ م

٤ ـ أبو نصر « السراج » :

اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور ، القاهرة ١٩٦٠ م

٥ ـ الجرجاني :

التعريفات ، طبعة عيسى الحلبي ، ١٩٣٨ م .

٦ ـ صدر الدين القونوي :

شرح الحديث الأربعين ، القاهرة ١٣٣٤ م .

٧ ـ زكريا ابراهيم « الدكتور » :

دراسات في الفلسفة المعاصرة ، القاهرة بدون تاريخ .

٨ ـ السهروردي :

حكمة الاشراق إستانبول ١٩٤٥ م .

٩ ـ عبد الكريم الجيلي :

الانسان الكامل ، القاهرة ١٩٧٠ م .

١٠ - فريد الدين العطار :
منطق الطير ، ترجمة د . بديع محمد جمعه ، عبد المنعم حسنين ، - القاهر١٩٨٠م .
١١ - القاشانى :
اصطلاحات الصوفية نشرة الهيئة العامة للكتاب
١٢ - قاسم غنى :
تاريخ التصوف فى الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ، القاهرة ١٩٧٣ م .
١٣ - محيى الدين بن عربى :
عنقاء مغرب ، طبع مكتبة صبيح القاهرة ١٩٥٤ م .
١٤ - محيى الدين بن عربى :
الفتوحات المكية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨م.
١٥ - محمد عثمان نجاتى :
الإدراك الحسى عند ابن سينا ، دار الشروق القاهرة ١٩٨٠ م .
١٦ - نيقولاى بوديائف :
العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
١٧ - وولتر ستيس :
الزمان والأزل ، ترجمة د . زكريا ابراهيم بيروت ١٩٦٧ م ..

ثانيا : المصادر الإنجليزية :

18 - A. affifi ; The Mystical Philosophy of Muhyid Din. Ibnul Arabi, Cambridge ; 1939 .

19 - H . D. Lwis ; Philosophyof Religion , London, 1975, P. P. 202, 203 .

20 - R.A .X Nicholson, The Mystics of islam London 1975 .

21 - J . D ewey; Reconstrruction in philosophy ; New york 1948 , P - 156 -

22 - E. Underhill. A Study in the Nature and Develepment of Man,s

Spiritual Consciousness London 1949.

23 - W. James ; The Varieties of Religious Experience , London , 1975.

24 - w. stace; Mysticism and philosophy , London , 1961 .

فهرست الكتاب



رقم الإيداع بدار الكتب
المصرية
٢٣١١ لسنة ١٩٨٩